

القصصُ الأولى

–النصُّ مُشَكَّلًا–

هذه القصص القصيرة مهداة إلى

نشيد الكروان..

التي راجعت النص نحويا..

شكرا، محبتي

الفهرس

المحتويات:

معاذ

تموز (يوليو) ٢٠١٦

@Raskolnekov

Twitter: @raskolnekov

Say At: https://Sayat.me/raskolnekov

Wordpress: https://muharrubaian.wordpress.com

Mail: muhammad.arrubaian@yahoo.com

Saudi Arabia, El-Qassim, 1st edition. July. 2016

...3rd editon. May. 2019

الاصدار الأول: تموز (يوليو) ٢٠١٦

التعديل الثالث: أيار (مايو) ٢٠١٩

الفصلُ الأولُ

الساعة ١٢:٣٠ صباحًا

في ليلةٍ من الليالي الباردةِ، في مزرعةٍ ما من مزارعِ مدينةِ الـ...، كان معاذُ السـ...، الطالبُ في كليةِ الآداب، يستعدُّ استعدادًا خاصًّا لأداءِ اختبارِه في مادةِ *الحبكةِ الدراميةِ*. إنه الآنَ يفتحُ كتابَه ويقرأُ جملتين من هنا، وجملتين من هناك، ثم يفتحُ الدفترَ ويسجلُ معلومةً مهمةً من هنا، وينقلُ ثلاثةَ أسطرٍ من هناك.

وبعدَ مرورِ ساعةٍ كاملةٍ، بدأَ صديقُنا يشعرُ بالمللِ، بدأَ يتضايقُ من جلستِه. لقد كان يشعرُ أنه مُحاصرٌ. إن معاذَ لا يحبُّ أن يحاصَرَ بالكتبِ الدراسيّةِ، وقالَ لنفسِهِ: «ما ضرَّ لو ارتحتُ قليلا، وفتحت هاتفي واطَّلعتُ على ما يقولُه العالَمُ؟ آآخ تبا لهذه الجامعةِ، لولاها لكان في يدي الآن مشروعان على الأقلِّ». كان معاذُ يعتقدُ دائما أن الجامعةَ تؤخرُه عن أداءِ مهامِّه ومشاريعِه، ولو سألنا معاذَ، ما هي هذه المشاريعُ، المشاريعُ التي ينوي أن يقيمَها وما هو شكلُها؟ ما أجابَ علينا بشيءٍ. إن مشاريعَه وهميةٌ. عاد يقولُ لنفسه: «همم، لا بأس لو تركتُ المذاكرةَ قليلا، أما الاجتهادُ فله وقتٌ طويلٌ.». وهكذا فتحَ معاذ جهازَه وبدأ يقرأُ ويردُّ على الناسِ.

حدث هذا بعد أن اتصلَ بعاملِهِ عبدِ القادر، وكلَّفه بشراءِ ربطتين من الورقِ *إيي فور*، وعلبتين من الأقلامِ.

إن معاذَ يدّعي كذِبا في تدويناتِه التي يكتبُها في حسابِه أنه على وشكِ إنهاءِ روايةٍ طويلةٍ تقعُ في ألفي صفحةٍ. وعلى ما عبّر معاذُ لصديقتِه جُمانةَ، في وقت سابق: «فإن روايتَهُ ستُغيّرُ من المفاهيمِ الخاصّةِ والعامّةِ في المجتمعِ، وستفضحُ جميعَ الأشياءِ، وما من شيءٍ إلا وستأتي عليه، وستفضحُ *المجتمعاتِ الراقيةَ* خاصة، وأن الناسَ يجبُ عليهم، منذُ الآن، أن يأخذوا حذرَهم، ويجهزوا أعذارَهم، وأن الأخلاقَ جميعَها ستتغيرُ، وسَتُضافُ قوانينُ جديدةٌ في البلادِ، وستتهاوى رؤوسٌ «*ضخمةٌ*» وستقامُ محاكماتٌ،...إلخ»، وكان معاذُ يشدّدُ على نقطةٍ هامّةٍ هي أنّه يكتبُ الروايةَ بيدِهِ، لا بالكمبيوتر، وكتابةُ النصِّ باليدِ يعطي النصَّ مزيدا من الكلاسيكيةِ والأهميّةِ، كما في رأيِ معاذ. *أما أنا، أتكلمُ عن نفسي، الراوي*، ففي الحقيقةِ أني لا أستطيعُ أن أجزمَ للقراءِ الكرامِ أن معاذ صادقٌ في قولِه! صحيحٌ أنه بدأ قبلَ سنةٍ بكتابةِ روايةٍ حقيقيةٍ، لكنه لمْ يكتبْ منها إلا سطرا، الذي جعلَ منه مقدمةً:

«...*عندَ غسقِ يومِ الخميسِ الماضي، كان رجلٌ يركضُ*...»،

هذا هو كلُّ ما أتمَّه معاذُ من الروايةِ الكبيرةِ. إنه لم يكتبْ إلا تسعًا من الكلماتِ، لكنه في أعماقِ نفسِه يشعرُ أن هذه الكلماتِ التي كتبها هي ملامحُ لروايةٍ سيكيولوجيّةٍ عظيمةٍ قادمةٍ بقوةٍ. إنه يُكَلِّمُ نفسَه قائلا: «عندَ الغسقِ، رجلٌ يركضُ؟ يا لي من داهيةٍ».

إن معاذ يعتقدُ أن الغسقَ في روايتِه يشكلُ العقدةَ الأساسيَّةَ للأحداثِ. إنه يعتقدُ أن الغسقَ في نصِّه الأدبيِّ يشابُهُ الثلاثةَ ألافِ روبلَ في روايةِ الأخوةِ كارامازوف.

الساعة ١:٤٥ صباحا

وبينما كان معاذُ يرى ويَطَّلعُ في جهازِه، ويحدّثُ الصفحةَ بين الفينةِ والأخرى، متدثرا بفروتِه، متمددا بين أوراقِه، متبرما من جامعتِه التي تضعُ له الحواجزَ تلوَ الحواجزِ في طريقِهِ إلى تحقيقِ حلمِه ومشاريعِه، أقولُ إذ سَمِعَ بابَ مسكنِه الصغيرِ يُطْرَقُ طرقًا ملحّا: طرق طرق طرق... إن هذا المسكنَ الصغيرَ يقعُ في منتصفِ المزرعةِ، أي أنك إذا أردتَ أن تصلَ إليه، فيجبُ عليك أولا أن تدخلَ مع المدخلِ الرئيسِ الذي يقعُ على الطريقِ العامِّ، بعد ذلك يجبُ عليك أن تسيرَ وتجتازَ ما يقاربُ الكيلومتر حتى تصلَ إلى المسكنِ الذي يتخذُه معاذ منزلا له.

«من عساه طارقا في هذه اللحظةِ، وكيف دخل إلى هنا، ومن سمح له؟ أيكونُ العاملُ؟ إنه يزعجُنا!».

فتَحَ معاذُ البابَ، ثم إذا به يتفاجأُ أن الضيفَ القادمَ لم يكنْ عاملا، بل إنه أبعدُ ما يكونُ عن العاملِ، إنه مواطنٌ. إنه رجلٌ سعوديٌّ. رجلٌ متلثّمٌ بشماغِهِ، تظهرُ من وجهِه دائرةٌ صغيرةٌ تُظْهِرُ أنفَهُ وجزءًا من فمِّه.

لم يكدْ معاذُ يدركُ ويستنتجُ أنه فتح البابَ لشخصٍ غريبٍ لا يعرفُه، حتى كان المواطنُ قد انسلَّ، وبسرعةٍ شديدةٍ، وبخفةٍ قافزةٍ مثلِ قطٍّ، إلى داخلِ الغرفةِ مغلقا خلفَه البابَ.

أطارَ معاذُ عينيه في هذا القادمِ الجديدِ غيرَ مستوعبٍ ما يحدثُ، ثم إذا به يتفاجأُ، مرةً ثانيةً، أن الضيفَ يقفزُ إليه ويقولُ له:

– هييه! أطفئْ جميعَ النورِ والإضاءةِ. لا يجبُ أن ينتبهَ إليَّ أحدٌ، أو أن يراني أحدٌ! لقد زرعتُ مخاوفي في أرضٍ مُبْتَلَّةٍ! أنا مراقبٌ، وأناسٌ جديرون بالاحترامِ مكلفون بمراقبتي، وهم يبحثون عني الآن! ولأولِ مرةٍ أنجحُ في الهروبِ منهم منذُ زمنٍ طويلٍ! أطفئْ جميعَ النورِ والإضاءةِ يا معاذ، أطفئها! وائتنا بماء...، (الضيفُ ينظرُ إلى الأوراقِ المنتشرةِ على الأرضِ)...هاه؟ ما هذه الأوراقُ المتكدسةُ؟ (يقرأُ): الحبكةُ الدراميةُ؟ هل تمزحُ معي؟...، أطفئْ جميعَ الأنوارِ...، (الضيفُ يأخذُ الأوراقَ ويقرأُ مرةً ثانيةً): ..«تعريفُ الحبكةِ هي الأحداثُ المتسلسلةُ!» كذب..، تدليس..، تلفيق..، ليستْ الحبكةُ هكذا...، إنها أكبرُ وأسمى من هذا الذي تسميه..، أطفئْ النورَ...،

هكذا أمرَ الضيفُ معاذَ، ثم خلع شماغَه ورماه جانبا ومشّطَ شعرَه بأصابعِه، ثم أخرج من جيبِ معطفِه أوراقًا بيضاءَ كثيرةً وأقلامًا مُلونةً، ووضعها على الأرضِ، وجهَّزها وصَفَّها، منتظرا عودةَ معاذَ بالماءِ.

وبعد أن عاد معاذُ، صُدِمَ وكاد يفقدُ الوعيَ! إن هذا الضيفَ المواطنَ، الذي يصفُّ حولَه أوراقا وأقلاما، لم يكن ضيفًا ولا شيئا من هذا القبيلِ! إنه معاذُ نفسُه. إن الشخصين الموجودين في الغرفةِ شخصٌ واحدٌ، هو معاذ.

– أأنا أحلمُ!؟ ماذا لو صَببتُ على رأسي الماءَ لَعلِّي أصحو من نومي؟ هممم، لكن ماذا لو كنتُ لا أحلمُ؟ ماذا عساه قائلا عني هذا الرجلُ

الغريبُ؟ أهو أنا؟ وهل سيقولُ عني إنني مجنونٌ؟ ثم ما كلُّ هذه الأوراقِ التي ينشرُها أمامَه؟ هل أنا أعقلُ المسألةَ أم أتوهّمُها؟

– لستَ تحلمُ يا صديقي، ما أنتَ بحالمٍ. إنك تغرقُ في بركةٍ من حقيقةٍ وواقعٍ: إن الواقعَ يبلغُ من اليأسِ أنَّهُ مصدرٌ لغويٌّ بصيغةِ الماضي. أما الخيالُ فلا يفيدُك الآن...، بالمناسبةِ، لقد قرأتُ مرةً أن الأدبَ كلَّه بجميعِ أنواعِه وصنوفِهِ إنما يقومُ على قائمتين لا ثالثَ لهما، أولُهما الخيالُ، ثم الرمزيةُ ثانيا، والـ...

هنا يقاطعُ معاذُ الأصليُّ قائلا:

– ...لا تنسَ الفصاحةَ، الأدبُ يقومُ على الفصاحةِ أيضا...

– الفصاحةُ، هه؟ الفصاحةُ أصلٌ من أصول الأدبِ؛ لذلك هي غيرُ قابلةٍ للنقاشِ.. لكن الخيالَ والرمزيةَ ما هما بأصلين، ولكن دعني أسألُك يا معاذ، ماذا لو كان الفصيحُ لا يملكُ مخيلةً ولا باستطاعتِه أن يرمّزَ المآربَ في نصوصِه، ماذا يفعلُ؟ هه، على أيِّ حالٍ، يجبُ على العملِ أن يأتيَ قبلَ الشعورِ في حياةِ الإنسانِ.

«هل نفدَ إلى مخيلتي هذا المجنونُ هو وأوراقُه، هذا الخبيثُ؟»، هكذا عاد معاذُ الأصليُّ يدخلُ في هواجسهِ، قبل أن يُحوِّلَ علائمَ وجهِهِ إلى علائمَ وجهٍ طبيعيٍّ يصادفُ مواقفَ كهذه يوميا، ويصادفُ يوميا من خمسةٍ إلى ستّةٍ أشخاصٍ مشابهين له! هو إذن لا يشعرُ بالغرابةِ من أنه يستضيفُ ضيفا يشابهُه في كلِّ شيءٍ، ولكنه، مع ذلك، يرغبُ في أن يقولَ لضيفِه

المشابهِ له: «هيه؟ ماذا تريدُ؟ إنك تزعجُنا؟». وفي هذه اللحظةِ قفزَ معاذُ الضَّيفُ، بلا مقدماتٍ، إلى معاذِنا الأصليِّ، مبرزا أمامَه ورقةً، قائلا له:

- وقِّعْ!.
- علامَ أوقعُ؟
- «علامَ توقعُ؟» انظروا إلى هذا الأبلهِ ماذا يقولُ؟! إنه عَقْدُ روايتِك. للتوِّ جئتُ من بيروتَ، من دارِ الخ.. للنشرِ، تحديدا، بعد تضييعي الذين كانوا يراقبون تحركاتي، وغدرتُ بالجواسيسِ، عندَ مفرقِ الأردنَ، وها أنا الآن هنا، وهذا هو العقْدُ...، هيا وقِّعْهُ! ...، أما هذا، همم، أين الشـ..، (الضيفُ يبحثُ في أغراضِه ويخرُجُ ورقةً)، نعم.. هنا.. هذا، نعم، هذا شيكٌ بمليون دولار...، هو أتعابٌ مقدَّمَةٌ يا سيدي، ولكن قبلَ هذا كلِّه، يجبُ أن نهتمَّ بالأمرِ الأساسيِّ!
- وما هو الأمرُ الأساسيُّ؟

استبدَّ بمعاذ الأصل استغرابٌ عظيمٌ جعلَه غيرَ قادرٍ على أن يتصرفَ بوجهٍ طبيعيٍّ! إنه الآن يبدو شخصا عاديًّا يتحدثُ مع شخصٍ عاديٍّ آخرَ. إنه الآن يتصرفُ هكذا بِفعلِ القدرِ الكبيرِ من الغرابةِ التي استبدَّت به.

يكمل معاذُ المزيّفُ:

- يجبُ أن نخرجَ قليلا إلى السيارةِ، فهناك جثةٌ.
- جثةٌ!!؟
- نعم يا عزيزي هي جثةٌ من الجثثِ، وما عساها تكونُ غيرَ جثةٍ؟! اسمع: عندما دخلتُ إلى المزرعةِ صادفني فأزعجني عاملٌ، نحيلٌ

البنية، *هل تعرفُهُ!؟*، فسحبتُه بيدي من رقبتِه وألقيتُه بصندوقِ السيارةِ، ثم ماتَ! ماتَ هذا الغبيُّ! هل الأمرُ يحتاجُ إلى وفياتٍ؟ هل نحن، في المجتمعِ المدنيِّ، بحاجةٍ إلى أن نُقْتَلَ ونموتَ؟ هذا سؤالٌ وجوديٌّ فلسفيٌّ إلى أقصى حدودِ الوجوديَّةِ والفلسفةِ، أطرحُه وأبسطُه أمامَك الآن بكلِّ أبعادِه: إننا لا نملكُ أيَّ شيءٍ: لا نملكُ الشخصيةَ ويعوزُنا العمقُ! إننا نبحثُ عن الخبزِ يا عزيزي، وتريدُ منا أيضا أن نموتَ؟ هه، اسمع: نحن نتنفسُ هواء موبوءا، رطبا، سيئا، وقد غرقنا غرقا كُليًّا بالظروفِ المحيـ.. المهمُّ، يجبُ أن نتصرفَ سريعا.. إنني مراقبٌ، ولستُ الآن مراقبا من قبلِ رفاقي القدماءِ، لا، لقد أضعتُهم في مفرقِ الأردن، ولكنَّ مَن يراقبني الآن هم السلطاتُ المحليّةُ. لقد شوهدت وأنا أسحبُ رقبةَ هذا الغبيِّ، مات هه؟ لقد ضجرَ من حياتِه فأعلن أنه سيموتُ، نعم قال: سأموتُ،.. سخريةٌ.. هه، هذه هي عُقَدُ الحياةِ: الموت والضجر.

هكذا قال معاذُ الضيفُ ثم جرجر معاذَ الأصلَ إلى السيارةِ.

– أين برميلُ الديزل؟

– «برميلُ الديزل»؟

– نعم! برميلُ الديزل! هذا، رشاشُ الماء الذي يسقي الزرعَ، على أيِّ وقودٍ يعملُ؟

سألَ الضيفُ السؤالَ رغبةً منه في أن يعرفَ مكانَ البرميلِ.

فيجيبُه معاذُ الأصلُ مشيرا إلى ناحيةٍ بعيدةٍ، قائلا له: «هناك يقعُ البرميلُ!». إن معاذَ الأصلَ لا يعلمُ ما الذي يدورُ هنا! لا يعلمُ شيئا أبدا مطلقا نهائيا البتةِ.

- **رائع! فلْنحمل هذه الجثةَ إذن إلى برميلِ الديزل، ثم نضعُها بداخلِه، ثم نغلقُ البرميل...، انظر، هل ترى الإشاراتِ الملوّنةَ تلك؟**
- **نعم، أراها.**
- **إذن، فاعلم أنهم السلطاتُ لعنهم الله. يبحثون عن المشاكلِ، وما إن يروا أو يشكوا أن أحدا ارتكبَ جريمةً حتى يجيئوا إليه فيضايقونه: «هيه، أنت قتلتَ شخصا إننا نملك أدلةً وبراهينَ ومعطياتٍ»، طيب، أين هو الشيءُ المنكرُ الغريبُ الفريدُ في أن يقتلَ امرؤٌ امرأً آخر؟ إنني لم أقتل جمال خاشقجي على أيةِ حالٍ، بل قتلت عاملا! ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدتِ الأرضَ! شخصٌ ضايقَه شخصٌ آخرُ فقَتَلَه، أين المشكلةُ؟ لم يسرقْ سكّينا أو مسدّسا، لقد قتله بيدِه التي وهبها اللهُ إياه...، إن هذا لأمرٌ غريبٌ! إني لا أفهمُ الشرطة، وكيفية عملها!**

كان الضيفُ يحملُ الجثةَ على كتفيه، بعد أن طلب من معاذ الأصلِ أن يرافقَه. ولـمَّا رأى أن المسافةَ طويلةٌ قليلا (إنهما سيقطعان حقلا أخضرَ كبيرا)، أقولُ إن الضيفَ لـمَّا رأى أن المسافةَ طويلةٌ، قرر أن ينتهزَ الفرصةَ، كما ينتهزُها السعوديون غالبا بإظهار مواهبهم في الخطابة، ويعطي صديقَه الأصليَّ بعضَ المعلوماتِ الأكاديميةِ، فقال له من ضمنِ ما قال:

- إن الحبكةَ الدراميةَ، عزيزي معاذ، ليست مجموعةً من الأحداثِ المتسلسلةِ، بل هي مجموعةٌ من الأحداثِ التي تؤدي إلى خاتمةٍ! فالهدفُ إذن هو...، همم، أين البرميلُ على وجهِ الدقةِ، أشر إليه بيدِك...، ها، هذا هو إذن، نعم، أقولُ لك إن هدفَ الحبكةِ الدراميةِ هو وجودُ خاتمةٍ قويةٍ مدعومةٍ بأحداثٍ سابقةٍ قويةٍ هي الأخرى تمهّدُ وتهيئُ لهذه الخاتمةِ؛ القفلةُ هي المهمةُ، لا تسلسلُ الأحداثِ! إن حياتَك أحداثٌ متسلسلةٌ، فهل يعني ذلك أنها محبوكةٌ بالضرورةِ؟ طاااخ تشووو.

رمى الضيفُ الجثةَ بالبرميلِ الكبيرِ، ثم أغلقَه، ثم قفلَ عائدا، معه معاذُ الأصلُ إلى المسكنِ الصغيرِ.

- انظر يا معاذ! ستُحاصرُ السلطاتُ المكانَ الآنَ أو بعدَ قليلٍ، وسيضيعون وقتَهم ووقتَنا هباءً بالأسئلةِ: «أين كنت الساعةَ الفلانيّةَ، وما الذي حصلَ الساعةَ العَلَّانيّة؟»، لكن لا تقلقْ، سأدبّرُ الأمرَ! وكلُّ ما عليك فعلُه هو أن تكملَ...، ها؟ (استدركَ معاذُ المزوَّرُ بعد أن كان قد نسي ما يريدُ قولَه)، وأكمل: أكملْ الروايةَ يا بنيَّ! طيب: إن روايتَك تقولُ إن رجلا يركضُ، ثم ماذا؟ أين الشيءُ العجيبُ المثيرُ في أن يركضَ رجلٌ ما؟ إننا جميعا نركضُ في هذه الحياةِ، وإذا لم تركضْ دهسَك الراكضون بأقدامِهم! **Its either play or** *

* تعني: «إما أن تبادرَ باللعبِ أو يُلعبَ بك.»

get played! «طق، طق، ككق، قووق، حوّل، خشش، قووق»، ادخلْ الغرفةَ الأخرى، ولكن أعطني ملابسك أولا...

الفصل الثاني

قبلَ سبعةِ أشهر:

إن جمانةَ، السابقُ الحديثِ عنها، التي تعرَّفَها معاذُ خلالَ الإنترنت، فتاةٌ جميلةٌ خارقةُ الجمالِ: لو كان معاذُ فهدَ المساعد لكتب فيها أربعَ عشرةَ قصيدةً ركيكةً، ولو كان أندلسيا لكتبَ فيها قصيدتين من طراز: «لمْ يكنْ وصلُك إلا حلمًا في الكرى».

وكانت، جمانةُ، قد شُدّت إلى معاذ بسبب طباعِه الغريبةِ المجنونةِ: وذلك شأنُ النساء، على أيِّ حالٍ، فهن متقلباتُ المزاجِ، ويفضّلن الغرابةَ على الجمالِ؛ ذلك أن الجمالَ روتينيٌّ لأنه ذو نسقٍ واحدٍ، والغرابةُ متعدّدةٌ، وهذا لا يعني أننا نثني على النساء، فمن سخافتهن وبساطتهن ما يعلمُهُ إلا اللهَ، ومعاذُ لم يرَها في يومٍ من الأيامِ، ولكنه، بطريقةٍ من الطرقِ، وبمعنى من المعاني، يعلمُ، علمَ اليقينِ، أنها جميلةٌ جدا، ودائما ما كان يبحثُ عن فرصةٍ لإطالةِ الحديثِ معها! وخمّنوا ماذا؟ لقد أحبّته هي أيضا! لكن الغريبَ في هذا الأمرِ كلِّه، أنه لم يسبقْ لمعاذ أن صرّحَ لها أو طلبَ منها مطالبَ ماديَّةً، كأن يطلب منها صورةً أو شيئا من هذا القبيلِ؛ ذلك أن حبَّه إياها قد يكون حبًّا لها أدبيًا لا واقعيا: أي أنه حبٌّ محاطٌ بالخيالاتِ الأدبيةِ، كروميو عازفا تحتَ نافذةِ جوليت، والاقتباساتِ والرواياتِ، وجمانةُ تعلمُ أنه

يحبُّها حبا جنونيا خارجا عن العادةِ والمألوفِ: «إنه يحبني حبا جنونيا يبلغُ من الجنونِ أنه اضطرَ إلى أن يكذبَ بشأنِ روايتِه حتى ينالَ إعجابي! ولكن هل يُنالُ إعجابي بروايةٍ؟» هكذا قالتْ الجميلةُ لنفسها! إن أحاديثَ الجميلاتِ مع نفسهنَّ جديرٌ بالملاحظةِ. نعم، إنها تعرفُ أن معاذ لم يكتبْ روايةً قطُ، وتعلمُ أيضا أن يكفي أن تمرَّ في بالِه حتى تسري في جسدِهِ رعشةٌ جنسيةٌ خارقةٌ. نعم، إن هذا هو الوصفُ النفسيُّ لحالةِ العلاقةِ بين معاذ وجمانة.

وإن جمانةَ قالتْ لمعاذ يوما: «إن كنتُ سأحسدُك على شيءٍ في يومٍ من الأيامِ، فسأحسدُك على هذه اللامبالاةِ التي تمتلكُها». ولكن معاذَ، للأسفِ، لا يريدُ أن يرى صورةَ جمانة، لأنه يخشى أن تكونَ جميلةً، ثم إذا هجرتْهُ لاحقا، يكونُ الندمُ عليها بقدرِ جمالِها. قالَ لنفسِه يحدثُها، ويصبرُها: «من الأفضلِ ألّا أراها مطلقا، حتى لا أتحسرَ عليها لاحقا...، ولكن ما هو الجمالُ؟ وماذا يفيدُ؟ وهل هو غايةٌ بذاتِه أم هو وسيلةٌ؟ إن الجمالَ ليس أكثرَ من بيز، إنه بيز لا أكثرُ! «الجمالُ بيز»، سجّلْ هذه المعلومةَ عندَك يا معاذُ. البيز قطعةُ خرقٍ نستخدمُها كي نمسكَ الأواني فقط، وصحيحٌ أنه بيز لا غنى عنه، ولكنه، مع ذلك، لمَّأ يزلْ خَرَقًا! هذا هو الجمالُ: الجمالُ بيز، الجمالُ خرَقٌ!...، ولن يُنْقِذَ العالَمَ».

لكن أين الجديرُ بالذكرِ في هذا كلِّه؟ الجديرُ بالذكرِ هو أن جمانةَ، التي قد تكونُ في نحوِ الثالثةِ والعشرين من عمرها، الطالبةَ العليا في كليةِ الهندسةِ، أقولُ إنها تحبُّه في كلِّ يومٍ مزيدا من الحبِّ، مع أن معاذ لم يكن جميلا؛ لقد كان جمالُه جمالًا سعوديا. وجمانةُ تحبُّ معدنَه الإنسانيَّ،

وتنتظرُ منه، على أحرِّ من الجمرِ، أن يعترفَ لها بكَذِبِه في مسألةِ الروايةِ، لأنها تعتقدُ أن الروايةَ تؤنبُ ضميرَ حبيبِها؛ ذلك أن معاذَ لما تعرّفَ إليها أولَ مرةٍ، قال لها: «إنه على وشكِ إنهاءِ روايةٍ ستكونُ أهمَّ رواياتِ العقدِ، وأنها ستغسلُ آثامَ المجتمعِ، وأنها...إلخ»، نعم، أقولُ إن جمانةَ تعتقدُ أن كذبةً، كهذه، بلا شكٍّ، ستضايقُ صديقَها معاذَ، وأنها تضيّقُ عليه الطريقُ، نحوَ ما أسمتْهُ بـ:«الطريقِ إلى قلبِها».، وأنها تضعَ (حواجزَ) بينَهما! حتى لقد فكّرت مرةً أن تخبرَه أنها تعلمُ أنه لم يكتبْ روايةً، لكنها ثنتْ عزمَها خشيةَ أن تجرحَ كبرياءَه، وأن تَفقدَه إلى الأبدِ. أما معاذُ، فلم ينوِ في وقتٍ من الأوقاتِ أن يعترفَ لحبيبتِه بأنه لم يكتبْ الروايةَ؛ بل إنه، كلَّ يومٍ، يزيدُ تفاصيلَ كذبتَه شيئا جديدا.

أما الهَمُّ الأساسيُّ عندَ جمانةَ، فهو أن معاذَ لم يرَها أبدا! وهي ترغبُ لو أنه يرى صورتَها ولو لمرةٍ واحدةٍ على الأقلِّ؛ لكنها، بالمقابلِ، تريدُه هو أن يطلبَ الصورة، لا هي التي تكونُ العارضةُ الصورة. لكن صديقَنا الطيبَ لم يفكرْ أبدا أن يرفعَ العلاقةَ إلى هذا السقفِ الطموحِ؛ ذلك أنه مكتفٍ بما لديه. والصورُ والمكالماتُ بالنسبةِ إليه ما هي إلا أشياءُ تافهةٌ، لا ترقى أن تكونَ عظائمَ. إن الحياةَ كلَّها بما فيها من خيراتٍ وجمالاتٍ وحسناتٍ لا تهمُّه، ولا تهمُّه سوى روايتِه، وصديقتُه جمانةُ، التي يعلمُ، أن حبَّهُ لها ليسَ نزوةً من نزواتِ الغرامِ؛ بل إنه يعلِّمُهُ كيف يكتشفُ نفسه.

الفصل الثالث

الوقت الراهن:

- ...نعم؟ خير؟ ماذا؟
- ...لقد ورد إلينا بلاغٌ أنه قد تمَّ هنا، قبلَ نصفِ ساعةٍ، أحداثٌ مشبوهةٌ، فهل لي أن أرى بطاقتَك الشخصيةَ أولا؟ وهل يوجدُ أحدٌ هنا غيرُك؟ (شهفمهف...، الشرطيُّ يتشمّمُ) وهل أنتُ مالكُ هذه المزرعةَ؟ وإن لم تكن أنت المالكَ، فيجبُ استدعاءُ المالكِ شخصيا، وإذا لم يكـ...وما هذه الرائحةُ؟
- إن هنا مخزنَ للكرتون. لا تقلقْ! إن الرائحةَ منه. انتظر سآتيك ببطاقتي.

أغلق معاذ البابَ، ثم ذهب يطلبُ من معاذ الأصليِّ بطاقتَه، غامزا له غمزةً فيما معناها: «ألم أقل لك إنهم سيزعجوننا؟»، ثم أخذ البطاقةَ وأبرزَها أمامَ الشرطيِّ، وقال له:

- هي مزرعتي يا أخ، لكن الأوراقَ ليست معي الآن، ولكن إذا أردتَ فمعي صورةٌ للأوراقِ المُثبتةِ في الجوالِ. هل تسمحُ أن أريك إياها؟
- نعم.

هكذا ردّ الشرطيُّ متبرِّمَ الملامحِ.

أخذ معاذُ المُزيَّفُ جهازَ الهاتفِ، وفتحَ الرسائلَ، فأرسلَ هذه الرسالةَ: «اتصلْ على مكتبِ الشرطةِ وقدّم لهم بلاغا تقولُ فيه إن دوريةَ شرطةٍ دخلت إلى مزرعتِنا عنوةً دون إذنٍ منا»، ثم اكتبْ حاشيةً بالأسفلِ: «إن القانونَ يقتضي من السلطاتِ إذنًا خاصًّا للدخولِ إلى الممتلكاتِ الخاصَّةِ، ما لم يكن الأمرُ أمرَ مداهمةٍ.». ثم وصلت الرسالةُ إلى جهازِ صديقِنا معاذ

الأصليِّ، فقدَّمَ البلاغَ على الفورِ. ولم تمرّ ثلاثُ دقائقَ حتى انسحبتْ الشرطةُ.

***

– هل أنهيتَ الفصلَ الأولَ؟

هكذا سأل المزيّفُ الأصليَّ. ولكن حينما أراد الأصليُّ أن يردَّ بكلمةٍ «لا»، اضطربَ ووقعتْ فاجعةٌ! لقد اكتشفَ أنّه، بالفعل، أَتَمَّ الجزءَ الأولَ كاملا، وهو جزءٌ يضم تسعةَ فصولٍ! ولقد أَتَمَّ هذا وهو لا يعلمُ ولم ينتبهْ! لقد أنهى أربعَ مئةٍ صفحة!

وقال للمزيفِ، وهو محاطٌ بسحابةٍ من ارتباكٍ، وتأتأةٍ:

– نعم، أنهيتُه(!)
– أنهيتَه! رائعٌ! ولكن ما لارتباكِكِ هذا وتأتأتِك؟ هل أثرتَ فيك الروايةُ هذا التأثيرَ كلَّه؟ هممم، نعم، (المزيفُ يقرأُ المخطوطةَ)، فهمتُ حبكتَك، أنت تتكلّمُ عن صراعٍ عائليٍّ...، إنها روايةٌ ضخمةٌ، ولن يفهمَها الجمهورُ؛ ولو كنت مكانَك لخَفَّفَتُ من ضخامتِها، ولكن، الآن، ليس وقتَ أدبٍ ورواياتٍ، إنه وقتُ جدٍّ!.
– وقتُ جدٍّ؟
– نعم؛ ذلك أن السلطاتِ ستعودُ مرةً أخرى حين ورودِ بلاغٍ آخرَ، فماذا سنفعلُ؟

أجاب معاذُ الأصليُّ:

- يجب أن نمنعَ أيَّ فرصةٍ لبلاغٍ آخرَ!
- لا لا، لن نمنعَ شيئا! فلا وقتَ لدينا. والشيءُ الأساسيُّ الآن هو أن تكملَ الروايةَ؛ إن الروايةَ كلُّ ما نملكُ، فإذا لم نكملْها فشلنا! أما أنا فسأخرجُ قليلا. إن أعمالا تقتضي وجودي، بزنس! وإياك أن يغلبَك الشيطانُ فتفعلَ شيئا ما! التزم بالـ...، أو تعال معي نغسلْ السيارةَ، إن بُقعًا من الدماءِ عليها.

الفصل الرابع

قبلَ ستةِ أشهرٍ:

إن الوصفَ الذي وصفَه معاذُ عن الروايةِ لجمانةَ يقولُ: «إنه كتب أولا ثلاثَ قصصٍ كبيرةٍ، وكلُّ قصةٍ لها حبكتُها الخاصةُ، ثم حين انتهى من هذه الثلاثِ، دمجها مع بعضِها، فأضافَ عليها قصةً رابعةً تربطُ كلَّ هذه الثلاث، والأحداثُ تقعُ في أربعةِ أيامٍ فقط، وهي من نوعِ الصراعاتِ النفسيةِ الإنسانيةِ»، هذا كان وصفُ معاذ. أما جمانةُ فقد بلغت من الحبِّ العميقِ أنها صدقتْ، أحيانا، بتصديقٍ كاذبٍ لا يجيدُه سوى الإنسانِ، أن الروايةَ ذات ألافِ الصفحاتِ موجودةٌ فعلا.

- اسمعي يا جمانةُ، إن وجودي بين مجتمعي وملاحظاتي قد فرضت عليَّ واجبا اجتماعيا، فرضت عليَّ كتابةَ هذه الروايةِ التي أنا بصددِ نشرِها. إذن، ما يحدُّني على نشرِها هو الواجبُ الأخلاقيُّ، وليسَ الأدبيَّ ولا التجاريَّ.

وآسفاه، إن معاذَ مريضٌ جدا، فهو يتكلمُ الآن عن الدواعي التي دعتْه إلى كتابةِ هذه الروايةِ الوهميةِ، ويتعرَّضُ بالشرحِ أهمَّ ما تطرحُه الروايةُ! اللهمَّ ارحم أولئك الذين لم ينتبهْ أحدٌ لحاجتهم إلى الرحمةِ والعطفِ.

يقول:

– إجابةً على سؤالِك يا جمانةُ، فإن الروايةَ تتعرضُ إلى ثلاثةٍ من المعارضِ الرئيسةِ، الأولِ: هل الشرُّ في الإنسانِ فطريٌّ أم مكتسبُ؟ عندما عرضَ اللهُ الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ أبينَ أن يحملنَها وأشفقن منها؛ وأما الإنسانُ، فكان قد قررَ أن يتولى المسؤوليةَ ويحملَ هذه الأمانةَ بكل ما أوتي من قوةٍ عينٍ! وهذا هو المُشْكِلُ الأولُ في الروايةِ! أما المشكلُ الثاني فهو القدرُ: أنا عن نفسي، كاتبِ هذه الروايةِ، لم أتوصلْ إلى جوابِ القدرِ، بعدُ، ولم أزدْ على أن طرحتُ أسئلةً جديدةً؛ ولكن ما هو القدرُ؟ ما هو هذا القدرُ الذي قال عنه الشافعي:

«دعِ الأيـامَ تـفـعـلُ مـا تـشـاءُ
وطِبْ نفسا إذا حكم القضاءُ»

ما هو هذا القدرُ يا جمانةُ..

– لا أدري..

– ..وما هي طريقةُ عملِه، وما هي الخطواتُ التي يَعْمَدُ إليها حينما يريدَ أن يتنفّذَ؟ ذلك كان المشكلُ الثاني! أما المشكلُ الثالثُ فهو مُشْكِلٌ مِيتافيزيقيٌّ صعبٌ معقّدٌ، ولقد كتبتُه بطريقةٍ هندسيةٍ بحتةٍ، كتبتُه كما يكتبُ علماءُ الهندسةِ كتبَهم.

- ومتى تنهيها يا معاذ؟ إنني راغبةٌ أقصى حدودِ الرغبةِ في أن أقرأَها!
- لا، لا، يا جمانةُ، ليس الآن!

قال معاذُ «ليس الآن»، وهو يشيرُ بيدِهِ إشارةَ الرفض، مع أنه كان يحادثُها مراسلةً.

الفصل الخامس

الوقتُ الراهنُ:

بينما كان المعاذان، الأصليُّ والمزيفُ، يمشيان متجهان إلى السيارةِ التي مُلئتُ ببقعِ دمٍ، إذ وَجَدَ معاذُ المزيفُ فرصةً للحديثِ، وقال:

- ما هو المجتمعُ يا معاذُ؟ إن ابنَ خلدون يقولُ إن المجتمعَ نتيجةُ متراكمةٌ وضروريةٌ لتاريخِ طويلٍ من الأعمالِ المتكافلةِ بين الأشخاصِ، ومن هذا التعريفِ يمكن أن يقالَ إن القواعدَ المتعارفَ عليها بين هؤلاء الأشخاصِ هي التي تقودُهم وتسيطرُ عليهم! إذن، المجتمعُ يتكونُ من أناسٍ تحكمُهم قاعدةٌ مجردةٌ، والناسُ بطبعِهم يتفرعون إلى طيبين وأشرارٍ؛ وإذن فالمجتمعُ، طبقا لما قلناه، ليس واجبا عليه أن يكونَ طيبا أو شريرا، بل يجبُ عليه أن يكونَ حالُه كما هو حالُ أناسِه: إذن هو لا يمكنُ أن يقاسَ بالمكاييلِ المعروفةِ. وإذا أردنا أن نحترمَ مجتمعا ما من المجتمعاتِ على اعتبارِ أنه مجتمعٌ، لا باعتبارِ أنه أشخاصٌ، فيجبُ علينا أن نحترمَ الشرَّ والخيرَ الذي فيه، ونقيمَ لكلِّ عاملٍ قيمتَهُ...، إن ما أودُّ قولَه هو إن الشرَّ موجودٌ، ونزوعُ

مجتمعٍ ما إلى الشرِّ يساوي مجموعَ نزوعِ ناسِه الأشرارِ إلى الشرِّ! وشرّية المجتمعاتِ هي المُسلَّمةُ الأولى التي يجبُ علينا أن نسلمَ بها فيما لو أردنا إصلاحَها. ولكن هل يمكن الاستغناءُ عن الشرِّ؟ أنت بنفسِك يا معاذُ فكرْ بهذا الأمرِ، هل يمكنُ؟ إن أغلبَ الأعمالِ الخيريةِ الموجودةِ بالحياةِ إنما هي قائمةٌ على وجودِ الشرِّ، وكالقاعدةِ الفقهيةِ، *إذا انتفت العلةُ انتفى الحكمُ*، إذا انتفى الشرُّ، بالضرورةِ، ينتفي الخيرُ معه...، ثم تعال، ما هي الفضيلةُ؟ ما هي ذي التي أزعجنا العلماءُ بها؟ الفضيلةُ ما هي؟ إنها هراءُ! لقد قرأتُ كتابَ أفلاطونَ الجمهوريةَ، وإنني أعترفُ لك نصًّا وصراحةً، إنني لم أكدْ أفهمُ منه سطرا واحدا، هل هذا قصورٌ مني بالفهمِ؟ لا أعلمُ! ولكني أعلمُ أنني لو واجهت سقراطَ، وسألني ما هي الفضيلةُ، لوليت الأدبارَ...، ولكني الآن كنتُ قد كبرتُ قليلا وصرت أفهمُ *إنني الآن أقرا لأرسطو*، وصرت أفهمُ أن الحياةَ نسبيةٌ، تكادُ تكونُ مسرفةً في النسبيةِ بعضَ الإسرافِ...، إن إبليسَ أوعزَ لفيثاغورس، وقال له: «أيا فيثاغورس، ما دمتَ فارغا، لِمَ لا تتدخلَ بحياةِ هؤلاء البشرِ الجشعينِ، وتفسدَها لهم وتجعلَ لهم مربعاتٍ ومثلثاتٍ يلهونَ بها، وقوائمَ وأضلاع؟»، فأجابَه فيثاغورسُ بأن: «نعم.»، فاستيقظ من الغد وهزَّ العالَمَ بقانون أضلاعِ المثلثِ قائمِ الزاويةِ...، إن هذا كلَّه إنما هو مشروعُ شيطان؛ مسكين الإنسانُ، يواجهُ الشيطانَ في شتّى مجالاتِ حياتِهِ، ومع ذلك فإنَّ فرصةً كبيرةً في أن يدخل النارَ

– ما دخلُ فيثاغورس والشيطانِ؟

هكذا سأل معاذُ الأصلُ.

فيجيبُ المزيفُ:

- لا دخلَ لهما.. من يكونُ فيثاغورسُ هذا على أيةِ حالٍ؟ ولكن ما قولُك في المهندسين؟ في رأيي أن الهندسةَ مبالغٌ في أمرِها مبالغةً شديدةً، وأن الـ...

وهكذا أمضى معاذُ المزيَّفُ حديثَه، وقد مرَّ، تقريبا، على جميعِ العلومِ، فقال عن الطبِّ: «إن الأطباءَ مصابون بداءِ كثرةِ الأملِ، إن كلَّ ما يفعلونه هو ارتداءُ البالطو، واضعين في جيوبِهم جهازَ هواوي، هذه هي موهبتُهم.»، وفي النهايةِ، الحمدُ لله، قررَ أن يبدأَ في طرحِ نظريتِه الجديدةِ في علمِ الكيمياء: (نسينا أن نخبرَكم أن معاذَ المزيفَ يحملُ ماستر في الكيمياء)، أقول إنه طرح، أخيرا، نظريتَه في الكيمياء، وقال عنها: «إن نظريتي تسعى إلى إلغاءِ الجدولِ الدوريِّ كاملا، والإبقاءِ على الهيدروجين فقط؛ أي أنها نذيبُ جميعَ العناصرِ وتصيِّرُها إلى عنصرٍ واحدٍ هو الهيدروجين»، وهنا، بالتحديدِ، كان المعاذان قد فرغا من تنظيفِ السيارةِ، وهمَّا أن يخرجا لولا أن لاحظا جميعُهما أن في الصندوقِ يوجدُ مجموعاتٌ كثيرةٌ من الورقِ موزعةً في كلِّ مكانٍ.

قال المزيفُ:

- أوراقٌ، هممم!؟ خذْ هذه المجموعةَ وابدأْ بكتابةِ الجزءِ الثاني عليها، واسمعْ: عندما نصلُ إلى الغرفةِ ستكون قد أنهيتَ الجزءَ الثاني الذي يحوي عشرةَ فصولٍ، فاجتهد!

- أوكي!

هكذا ردَّ معاذُ الأصليُّ، ثم بدأَ الكتابةَ ماشيا.

الفصل السادس

إنها الآن الثالثةُ صباحا، وقد بدأَ القلقُ والخوفُ يعملان عملَهما شيئا فشيئا داخلَ نفْسِ معاذ الأصليِّ! إنه الآن يبحثُ عن حيلةٍ وملجإٍ، وهو الآن أيضا على وشكِ إنهاء النصفِ الأولِ من الروايةِ: كان قد أتمَّ منذُ قليلٍ الصفحةَ السبعمئة، وهو الآن، وللمرةِ الأولى منذُ بدايةِ الأحداثِ، يتجرأُ وينوي أن يردَّ على صاحبِه المزيّفِ، *وأن يوقفَه عند حدِّه*، وأن ينتهيَ منه مرةً واحدةً وللأبدِ، فقال لنفسِه: «ما هذا!؟ يجبُ أن أتصرفَ معه التصرفَ المناسبَ وأوقفَه عند حدِّه، ولكن لا يهمُّ، إن كلَّ شيءٍ الآن في حكمِ المنقضي». ثم توجّهَ الأصليُّ نحوَ المزيفِ، الذي كان يحاولُ إشعالَ نارٍ، وقال له:

- اسمع، هييه...،

قاطعَه المزيفُ:

- كلُّ شيءٍ واضحٌ...، قاله العارفون وأكدوه بنظرياتٍ وإثباتاتٍ علميةٍ...، كلُّ شيءٍ جليٌّ وواضحٌ، ولا يحتاجُ مزيدا من الإيضاحِ؛ ولا على الإنسانِ إلا من نفسِه.
- ليس هذا ما أردتُ أن أكلمَك عنه، بل...،

قال معاذُ الأصليّ هذه الكلمةَ، وكأنه يدركُ فعلا ما كان المزيفُ يتكلم عنه.

عاد المزيفُ يتحدثُ:

- ...، ومع ذلك، ومع أنك لا تقصدُ هذا، فأقولُ إنه واضحٌ وجليٌّ...، إن الإنسانَ وهِبَ القدرةُ على أن يرى ويحاول أن يفهم؛ إن له عينين.
- ما هو هذا الجليُّ والواضحُ؟
- إذا كان جليا وواضحا، فكيف تطلبُ مني إيضاحَه؟
- اسمع، نحن الآن نعيشُ رؤيةَ السعوديةِ ٢٠٣٠، وانتهاكُ شخصياتٍ الآخرين ليست مهنةً ناجحةً يا صديقي...، إن الأخلاقَ العامةِ تلزمُك أن...،
- إنه واضحٌ وجليٌّ...،

سأل معاذُ الأصليُّ بعد أن ضجر من هذه الأشياءِ الجليةِ، وقالَ:

- طيب، ماذا سنفعلُ مع السلطاتِ إذا جاءت؟
- عن أيَّةٍ سلطاتٍ تتكلمُ؟

أجابَ معاذُ الأصليُّ محتارا من تَنَكُّرِ المزيفِ:

- جريمةَ القتلِ التي ارتكبتَها!
- هه! لم أرتكبْ أيةَ جرائمَ.
- ماذا(!!؟) لم...، لم تقتلْ؟ حسنا، لا يهمُّ، وماذا عن روايتي؟

أجابَ المزيفُ متململا:

- ماذا عنها؟
- أريد ورقا! سأذهبُ إلى السيارة.

لكن المزيفَ أمره ألّا يذهبَ، وأخذَه عوضا عن ذلك إلى الغرفةِ الأخرى.

إن الغرفةَ الأخرى، كانت مليئةً كلُّها بورقِ (إي ٤)، وقد يصلُ عددها إلى عشرين ألف دستةٍ: ذلك أن المغدورَ به، العاملَ عبدَ القادر، كان يشتري يوميا أوراقا لسيدِه معاذ الأصليِّ، وكان معاذُ يصفُّها في هذه الغرفةِ. إن معاذا يحتاجُ أوراقا كثيرة ليتمَّ روايتَهُ.

الفصلُ السابعُ

الوقتُ الراهنُ:

كان معاذ قد أنهى الروايةَ قبلَ خمسِ دقائق من الآن، وهو على وشكِ أن يرسلَها بالبريدِ إلى جمانة، قبلَ أن يسلمَها، أخيرا، إلى المزيفِ فيأخذَها معه إلى بيروتَ. وكان قد نقلها بطريقةٍ من الطرقِ إلى الكمبيوتر. إنها روايةٌ جدُّ ضخمةٍ: متنُ الروايةِ يقعُ في أربعةِ ألافِ صفحةِ، أما الشروحُ والفهارسُ والهوامشُ والمعادلاتُ الرياضيةُ المتعلقةُ بالقسمِ الهندسيِّ، فهي في ستمائة صفحةٍ.

- يا جمانةُ، إنني على وشكِ أن أرسلَ إليك ملفا هو كبيرٌ جدا...

- يا مريضُ، لا أريدُ منك شيئا، يا غبي، يا دجاجةً لا تبيضُ! ما أنت إلا دجاجةٌ! أرسلُ لك الآن صورتي في أبهى حللي كي تعرفَ ما ضيّعتَ على نفسِك يا غبي. هل ترى هذا الجمالَ، وهذا الجلالَ، وهذا الاحترامَ؟ لقد كان ملكَك في وقتٍ من الأوقاتِ! باي يا مريضُ، لقد أحببتُك بطريقةٍ غيرِ مفيدةٍ!

هكذا قالت جمانةُ بكلِّ ثقةٍ يمكنُ أن نتخيلَها! إن في النساءِ لصفةً عامةً هي أنهن لم يوهبن موهبةَ الثقةِ؛ وإن مجردَ نسيمٍ عابرٍ يمكنُ أن يهزَّ ثقتَها بنفسِها، لكن صديقتَنا جمانةَ كانت على العكسِ من ذلك. ومن الممكنِ أن يعطيَنا هذا قاعدةً عن الجميلات وهو أنهن لا يؤمنُ غدرُهنَّ.

وإن معاذ لما رآى صورتَها المشرقةَ ذُهِل ذهلا خاصا، ذلك أن ما يراه الآن هو جمالٌ خارجٌ السيطرةِ.

قالَ:

- طيب، يا جمانةَ، تقولين عني إنني مريضٌ! وأنا الذي أنهيتُ للتوِّ الروايةَ الضخمةَ التي تقعُ في تسعمائة ألف كلمة، وأربعين فصلا؟ طيب، على راحتِك! سأدعو الله أن يتوبَ عليك؛ الحياةُ مجردُ قليلٍ من الألمِ والصلاةِ! وما بين هذين: عوانٌ بين ذلك. ثم من علمك أن تتباهين بجمالِك؟ هل جمالُك هو كلُّ ما تملكينه يا جمانةُ (!؟)، لكن مهما يكنْ من أمرٍ، ففي نظري أن الاحترامَ ليس مربوطا بالجمالِ، وإن كلَّ فتاةٍ محترمةٍ لا يجبُ أن تكونَ جميلةً، وكلُّ جميلةٍ لا يجبُ أن تكونَ محترمة...،

- أتحسبُ نفسَك قلت شيئا جديدا!
- ..الجمال بيز يا راويةُ! أنتِ بيز. هي نظريتي يا جمانةُ. اقبليها أو ردّيها، الخيارُ لك. وإنني أريدُ أن تغفري لي لأني لم أكنْ أملكُ الوقتَ ولا الظرفَ: لقدد أُخِذتُ على حينِ غرةٍ. وأريدُ أن أسالَك، ما الذي كنت تريدينه على وجهِ التحديد؟ إني أسألُك كما يسألُ إنسانٌ إنسانا آخر، ما الذي كنت تريدينه، وما الذي أردتِ أن تكونيه، وما الذي كان بإمكانِك أن تقدميه ولم تقدميه؟ لنسلم جدلا أنني مريضٌ ودجاجةٌ؛ ذلك أن اللغةَ أتاحت لنا أن نفترضَ، لنسلم أنني مريضٌ، ما الضيرُ في ذلك؟ أن يكونَ الإنسانُ مريضا؟ إن كلَّ فتاةٍ محترمةٍ هي بالضرورةِ منزهةٌ عن سقطاتِ الزللِ، ولكنك الآن وقد قلتِ في حقي أشياء سيئةً، وأنني دجاجةٌ، فكلامُك مردودٌ عليك، وإنني أتركُك إلى الأبدِ؛ إنني لم أكن واقعا في يومٍ من الأيامِ، ولقد كنتُ وهمًا من الأوهام.

الفصل الثامن

الوقت الراهن، ٦:٠٠ فجرا

النهايةُ، والتحقيقُ

إن عبدَ القادرِ العاملَ النحيلَ الذي كان يكلفُه سيّدُه معاذُ بشراءِ دستات من الورقِ، أقول إنه تجاوزَ حدودَه مرةً فضحك في وجهِ سيدِه وقال له: «ماذا أنت فاعلٌ في كلِّ هذهِ الأوراقِ»، فاعتبرَ معاذ أن هذا السؤالَ

الخارجَ عن الأدبِ، إهانةً لتاريخِه الأدبيّ، فجرَّ عبدَ القادر، وكسر له رقبتَه، فقتلَه! إننا نتكلمُ الآن عن معاذ الأصليّ لا غيرِه. وبعد أن قتلَ عاملَهُ، حملَه إلى الغرفةِ الأخرى التي بها الأوراقُ، فجهّز له مكانا فدفنَه فيه تحتَ كدسِ الأوراقِ. «إنه يتجرأُ أمامَ واحدٍ من ألويةِ الأدبِ، فيسألُه عما لا دخلَ له فيه؛ ذلك جزاؤه»، هكذا كان معاذُ الأصليُّ يتحدثُ مع نفسِه.

لكن عبدَ الحفيظِ، رفيقَ عبدِ القادر، كان قد لاحظ اختفاءَ صديقَه، فبحثَ عنه كثيرا فلم يجدْه، فقدّمَ إلى السلطاتِ أكثرَ من ستةِ بلاغاتٍ، وذلك قبلَ زيارةِ الشرطةِ معاذَ كما أسلفنا في منتصفِ السرْدِ.

وما إن لاحظَ معاذُ أن دورياتِ الشرطةِ تدخلُ المزرعةِ دون إذنٍ أسرعَ فاتصل بالمكتبِ، فقال لهم ما معناه أن الشرطةَ دخلتْ دونَ إذنٍ، وبعد أن حققوا قليلا، وَرَدَ إليهم اتصالٌ من ضابطِهم وأمرَهم بالتراجعِ! وبعد أن تلاشت الشرطةُ، ذهبَ منطلقا إلى غرفةِ الأوراقِ، راغبا في نقلِ جثةِ القتيلِ إلى برميلِ الديزل، لكنه نقلَ الأوراقَ عوضا عن الجثةِ! لقد تحولت دستةُ الأوراق، في خيالِه وهواجسِه ومرضِه، إلى عدوٍ من الأعداءِ، ولقد انضمتْ إلى قائمةِ أعدائِه، إضافةً إلى أعدائِه في مفرقِ الأردنَ!

وبعد أن نقلَ ما يقاربُ ستين دستة من الأوراقِ، عاد إلى فراشِه فنام قليلا. «قووق، قووق، قووق»! لقد عادتْ الشرطةُ في السادسةِ صباحا مجددا. وما أن سمعَ معاذ الصوتَ حتى ذهبَ يختبئُ في غرفةِ الأوراقِ ذاتها، منتظرا من المزيفِ أن يردَّ عليهم! لكننا نعلمُ جميعا أن المزيفَ لا وجودَ حقيقيَّ له إلا داخلَ خيالاتِ معاذ المريضةِ! ثم كسرت الشرطةُ

البابَ، فعثرت على معاذ مختبئا ومستلقيا فوقَ جثةِ العاملِ عبدِ القادر في الغرفةِ التي كان معاذُ يملئها بالأوراقِ التي تتطلبُها الروايةُ الضخمةُ، على مدى سنين؛ ذلك أن الروايةَ تحتاجُ ورقا كثيرا!

انتهت،،،



–2–

حسام

–النصُّ مُشَكَّلًا–

حسام

آذار (مارس) ٢٠١٧

@Raskolnekov

Twitter: @raskolnekov

Say At: https://Sayat.me/raskolnekov

Wordpress: https://muharrubaian.wordpress.com

Mail: muhammad.arrubaian@yahoo.com

Saudi Arabia, El-Qassim, 1st edition. March. 2017

..3rd editon. May. 2019

الاصدار الأول: آذار (مارس) ٢٠١٧

التعديل الثالث: أيار (مايو) ٢٠١٩

الفصلُ الأولُ

– إنها عندما نشرتْ الصورةَ تلك، إنما كانت ترتكبُ خطيئةً من أكبر الخطايا الأخلاقيةِ...،

قال صديقي حسامُ كلامَه بكلِّ غضبٍ وانفعالٍ واهتياجٍ، لكن دونَ أن يتجاوزَ حدودَ القصدِ والاعتدالِ، ودون أن يجانبَ الحشمةَ، ودون أن يصرخَ ويعولَ. وبعدَ أن قال ما قال سافرَ إلى الدمام.

ولكن أين الغريبُ في أن يسافرَ امرؤٌ إلى الدمام؟ ليست الدمامُ بالبندقيةِ، لا، ولا هي بباريس! صحيح أنها مكانٌ تكرّم عليه علمُ الجيولوجيا فوهبَه بحرا، ولكن مع ذلك لا يكونُ السفرُ إليها غريبا! فلماذا إذن قلنا أن حسام سافرَ إلى الدمام؟

إن المسألةَ ليست السفرَ، بل هي دواعي السفرِ، الحوافزُ والمسوغاتُ. ما الذي دعَى صديقي حسام إلى السفرِ إلى الدمام؟ *وقد رافقتُه طبعا*، ولكن قبلَ أن نبدأَ الإجابةَ على هذا السؤالِ، اسمحوا لي أن

أعودَ إلى الوراء أربعَ سنوات، عندما كان حسامُ يدرسُ هندسةَ المعمارِ في جامعتِنا الكبيرةِ. وقد كان في ذلك الحينِ مدمنا على السوشل ميديا، وها هو في يومٍ يتجرأُ، فيتجاوزُ حدودَ نفسِه فيصادقُ فتاةً رائعة، *لقد كتبنا مفردةَ «يصادقُ»، لكن هل صادقَها فعلا؟*، وها هو يبدأُ بمتابعتِها، وها هي صديقتُنا في يومٍ من الأيامِ تُنزِلُ صورةً يظهرُ فيه جزءٌ من جسمِها. وبعدَ مرورِ أيامٍ قليلةٍ اتْبَعَت الصورةَ الأولى بصورةٍ أخرى، ثم بأخرى، حتى كانت قد نشرت عشرين صورةً بعدَ مرورِ سنةٍ كاملةٍ.

إن طبيعةَ هذه الصورِ ما هي بالصورِ الفاضحةِ، بل تكادُ تكونُ صورا عاديةً *ولقد أُتيح لي أن أرى واحدةً منها*، وأكادُ أجزمُ أن أغلبَ الناسِ يشاركون صورا مثلَ هذه في العادةِ! مُلاكُ القولِ إنها صورٌ عاديةٌ جدا ليس فيها أيُّ شيءٍ غريبٍ. ولكن صديقي حسامَ، الذي يتمتعُ بمخيلةٍ كبيرةٍ، تليقُ بأن تكونَ ممثلةً لمخيلاتِ الرجالِ بوجهٍ من الوجوهِ، بدأ يرسمُ المخططاتِ ويأمِّلُ الآمالَ، ويفكرُ بمشاهدَ روائيةٍ مع هذه الفتاةِ، مشاهدَ في الغالبِ أنها تحتوي على شابٍ يعزفُ أنغامًا على العودِ تحت نافذةِ صديقتِنا «ذاتِ الخصرِ النحيلِ المرنِ». *هكذا كان يقولُ حسامُ وهو الذي لم يرَ خصرَها في يومٍ من الأيامِ*، وعندما قلتُ له: «هل رأيتَ خصرَها؟»، قال: «لا»، فرددتُ عليه: «كيف عرفتُ أن خصرَها مرنٌ ونحيلٌ إذن؟»، قال: «إنه استندَ على المعطياتِ: قاسَ ساقَها وفخذَها فتوصّل بذلك إلى محيطِ خصرِها باستخدامِ نظريةِ فيثاغورث للمثلثاتِ القائماتِ الزاويةِ.»! انظرْ إلى أيِّ حدٍّ يمكنُ للعقل البشريِّ المريضِ أن يوغلَ ويبالغَ! نعم هذا هو صديقُنا حسامُ الخياليُّ.

لكن حصلَ في يومٍ أن اختفتْ صديقتُنا المرنةُ من الوجودِ الإنترنتيِّ فلا يُعرفُ أين ذهبت ولا أين اختفت! إن حسامَ يقولُ لي إنه قامَ بشبكاتِ بحثٍ طويلةٍ ومعقدةٍ اعتمدَ خلالَها على اللوغارتماتِ والخوارزمياتِ والكالكولس وشيءٍ من علمِ الجبرِ، ووظّف خلالَها أشخاصا كثيرين يحملون شهادات في علمِ الحاسوبِ، *ولكنه لم مع ذلك لم يسمحْ بأن يخترقَ حسابُها وذلك بسبب أغراضٍ أخلاقيةٍ*، وهو بعدَ هذه العملياتِ الكثيرةِ المكلفةِ يقولُ إنه لم يكتشفْ شيئا، ولكنه يعتقدُ أنها تزوجت!

وبعد إنهائِه الهندسةَ (٢٠١٣) قرر أن يتوجّهَ إلى الفلسفةِ؛ لقد قيل له إن دراسةَ الفلسفةِ تسمو بالعقلِ إلى أرقى مستوياتِ العقلِ الإنسانيةِ، فلا يعودُ الفيلسوفُ يفكرُ باللذةِ أو بالشهوةِ، بل يفكرُ في العُلى والفضيلةِ والطهارةِ من الأنجاسِ والدنسِ. إن حسامَ يريدُ الصعودَ إلى هذا المستوى الإنسانيِّ نفسِه ليسَ غيرَه، والابتعادَ عن هذا الشقاءِ كلِّه. إن قلبَه مستعدٌ أن يتركَ هذا العالَمَ الماديَّ كلَّه رغبةً في سموِ الروحِ والهدوءِ. لكن حسامَ، وبطريقةٍ من الطّرقِ توجَّه إلى الجيشِ (٢٠١٤)، وها نحن نراه يسجلُ في دورةٍ عسكريةٍ، ثم ينتقلُ إلى الحدِّ الجنوبيِّ، وها هو يشاركُ في معمعان القتالِ رغبةً في نسيانِ تلك التي نشرت صورةً بريئةً لعلها صورةٌ يظهرُ فيها جزءٌ من ابهامِها، وها هو يقتلُ عشرين حوثيا في ظرفِ ساعتين وبشريطِ ذخيرةٍ واحدٍ، وها هو يعطى ميداليةً، فميداليتن، فثلاث، فوسامٌ، وها هو يصبحُ عميدا في الجيشِ: *إنني لا أبالغُ؛ لقد رُقّي حسامُ إلى رتبةِ عميدٍ وهو لما يصلْ الثلاثين بعدُ*، وها هي ثلاثةُ فيلقاتٍ كاملةٌ بعدَّتِها وعتادِها كلِّها الآن تعملُ تحتَ أمرتِه. ولقد كان حسام يقضي نهارَه آمرا مأموريه وفاعلا

ومهاجما ومدافعا في ميدانِ القتال، وإذا حلَّ الليلُ انسحبَ إلى خيمتِه، وانكبَّ يدرسُ ويقرأُ محاوراتِ أفلاطون، ويراجعُ مقالاتٍ عن الأخلاقِ، ومسائلَ الخيرِ والحقِّ والجمالِ، وفي الشريعةِ والدينِ، ولكن مع ذلك كلِّه، لم يستطعْ بعدُ أن ينسى صديقتَنا هذه! صحيحٌ أن حياتَه كانت محاطةً باحمرارِ الدماءِ، لكنه يأبى الخضوعَ لكلِّ هذا الدمِ، ويرضى بالخنوعِ إلى تلك الصديقةِ. ما أروعَ البناتِ!

ولقد كان كثيرا ما يندبُ حظَّه، ويقولُ إنه «مسكينٌ»، وبأنه «لم يؤتَ من العلمِ إلا قليلا»، وإنه «آثمٌ»، وإن كفاراتٍ كثيرةً يجبُ أن يؤديَها للهِ، وإن «ثمةَ كتبا كثيرةً، وهو لم يقرأْ منها شيئا بعدُ، وإنه لا يجدُ الوقتَ»، ويأخذُ على نفسِه أنه «مهملٌ»، وأنه «يجبُ أن يعاقِبَ نفسَه فيذهبُ إلى العاصمةِ ويبحثُ هناك عن وظيفةٍ في السلكِ المدنيِّ على المرتبةِ التاسعةِ»، ولكنه كان كثيرا ما ينهي ندبَه نفسِه، بأن يقولَ «لعلَّ في هذا حكمةً يا محمدُ، هه؟». تُرى إلامَ كان يرمزُ حسامُ بهذه الأشياءِ وهذه المرتبةِ التاسعةِ؟ أعترفُ أنني قضيتُ فبرايرَ الماضي كاملا مفكرا في أمرِ صديقي حسام.

وتمرُّ السنتان وكان قد ترك الجيشَ بنفسِ الطريقةِ التي دخل بها، وكان أيضا قد نجح تماما في فهْمِ الفلسفةِ بمواضيعِها كلِّها، *وها هو أنا، وأنا عندَهُ في بيتِهِ*، أراه منشغلا بقراءةِ مؤلفاتِ ديكارت، وها هي عقبةٌ من العقباتِ في أحدِ كتبِ ديكارت تقفُ في وجهِه فلا يفهمُها. إنها نقطةٌ تتعلقُ بوظائفِ الأعضاءِ. ثم إذا به يقررُ السفرَ إلى أسبانيا (٢٠١٦) كي يحضرَ

عدةَ محاضراتٍ في علمِ وظائفِ الأعضاءِ باللاتينيةِ، وها هو يعودُ ويبدأُ في قراءةِ كانط.

الفصلُ الثاني

من ضوءِ ما سبق: إننا نرى رجلا درَسَ الهندسةَ، ثم شاركَ في القتالِ فقتل عشرين حوثيا، ودرس الفلسفةَ، فحاول أن يقاربَ بينها والإسلامِ ولم ينجحْ، ثم توجَّه إلى مدريدَ فتعلَّمَ ودرسَ وظائفَ الأعضاءِ، وله كتابٌ مطبوعٌ اسمُه (المستدركُ في الطبِّ) لكنه لا يُدَرَّسُ إلا لطلابِ المراحلِ العليا لِمَا فيه من كثافةِ المحتوى وصعوبةِ اللغةِ، وقد اختصرتَه طالبةٌ في جامعةِ القصيمِ، ووضعت عليه شروحا وحواشٍ، فقدَّمتْهُ رسالةَ التخرُّجِ، فنالت التفوُّقَ وتوصيةً بطباعةِ الرسالةِ، وسمَّتْهُ (المستدركَ على المستدركِ)، فانتشر أكثر من كتابِ حسام، ثم أُتيح لحسام أن يؤلفَ كتابَه الشهيرَ الذي نشره باللاتينيةِ، وتُرْجِمَ بعد ذلك إلى الإنجليزية: *رسالةٌ في النهاياتِ والاشتقاقِ*[*]، مع تلك الكتبِ التي أَلَّفَها في الفقهِ والحديثِ، ففي الحديث: *الطالبُ المُؤيَّدُ في شرحِ المسائل التي ذكرها أحمدُ*، وفي الجرح والتعديل: *السَّردُ المشهودُ في الرجالِ الذين لم يتكلم عنهم أبو داود*، وله شروحٌ مهمَّةٌ على هامشِ صحيحِ البخاري لم ينشرْها لأنها لا تليقُ «بالعلماءِ». وكتب مسرحيةً حواريةً افتراضيةُ اسمُها «في السياسة[**]» تدورُ بين فخرِ الدينِ الرازي والزمخشري ومحمد الحسن[**] ويحاولُ الحسنُ أن يثبتَ لهما، أن الإنسانَ مهما فعل فإن فعلَه فعلٌ صالحٌ، لأن طبيعتَه هي التي أمرتْه بهذا

Hossam. M. Gh., *Letters on Calculus*, Translated by *Stephen Hawking*. Oxford Univ. 2015 *

Hossam. M. Gh., *In Politcs*, Oxford Univ. 2015. Vol. II. p280. **

الفعلِ، والطبيعةُ خلقها اللهُ، واللهُ لا يخلقُ باطلا أو خاطئا...إلخ، وأيضا ترجمَ الإلياذةَ، وحقّق (الرسالةَ) للشافعي، وعلق على كتابِ أبي بكر الباقلاني إعجازِ القرآنِ، وله كتابٌ في النباتاتِ، ورسائلُ في السياسةِ، ومدوناتٌ في التسويقِ والاقتصادِ، وله رؤى جديدةٌ في علمِ الاجتماعِ السياسيِّ، وفسر سورةَ النساءِ تفسيرا جديدا عصريا، وأتى بعشر قواعدَ فقهيةٍ من سورةِ المائدةِ لم يُسمعْ بها من قبلُ، قواعدَ روَّعت الشيخَ الفوزان نفسَه، وردّ على سلمان العودة، وشرح ألفيةَ الإمامِ مالكٍ، وترجم كتابَ حكمةِ الإشراقِ إلى الفرنسيةِ، وله كتابُ: مدخلٌ إلى فهمِ السينما الأمريكيةِ...إلخ، إننا، إذن، نرى رجلا عاصرَ كلَّ هذه الأحداثِ، ***وواجهَ صبياتٍ اسبانياتٍ كثيراتٍ*****، ولكنه لمَّا يستطعْ، بعدُ، التخلُّصَ من خيالاتِه المعقدةِ! ما الحلُّ؟**

إنها العاشرةُ من صباحِ أمس الأولِ. إن الجوَّ صحوٌ، وأنا أتوجهُ إلى بيت صديقي حسام: إنه يجبُ أن ينتهيَ، اليومَ، من قراءةِ كتابِ نقدِ العقلِ الصِّرْفِ. وها أنا أصلُ إلى مسكنِه، وأطرقُ البابَ، وأدخلُ، ثم أتفاجأُ أنَّ صديقي حسام مستعدٌ لأمرٍ ما، إنه يحملُ ثوبَه وشماغَه المكوييْن وبدلتَه العسكريةَ في يدٍ، وكتابيْ نقدِ العقلِ الصِّرْفِ والعناصرِ لأقليدس في يدٍ أخرى، فقلتُ له:

- **إلى أين أنتَ ذاهبٌ يا حسامُ؟**
- **الدمام.**
- **الدمام؟**

– نعم هي الدمامُ نفسُها.

– وأيُّ شأنٍ يجبُ من أجلِه أن تذهبَ إلى الدمام؟

– هل تسألُ عن أيِّ شأنٍ؟

هكذا قال حسامُ بلهجةٍ ساخرةٍ تعبّرُ عن ألمٍ، ثم رمى كتابيْه، فالتفتَ إليّ فقال:

– أتسألُ عن أيِّ شأنٍ؟ ألا فاعلمْ أنه شأنٌ إنسانيٌّ، هو شأنٌ مرتبطٌ ببنيْ الإنسانِ جميعا، إنه مفترقُ طرقٍ: إن علياءَ عندما نشرتْ تلك الصورةَ، إنما كانت ترتكبُ خطيئةً من خطايا الأخلاقِ!

قال حسام عبارتَه، ثم سحبني معه إلى السيارةِ فتوجهنا إلى الدمام رأسا محاذرين ألّا نمرَّ بالرياض كي لا يُعَكِّرَ مزاجُنا مزيدا من التعكيرِ.

ركبنا سيارتَنا، وكانت الساعةُ عندئذٍ العاشرةَ صباحا وتزيدُ. وبينما نحن نسيرُ إذ سمعتُ حسام يهمهمُ ويتلفظُ بهمهاتٍ غريبةٍ وبصوتٍ غير مسموعٍ جدا، وبعدما أصَخْتُ سمعي جاء إلى ذهني أنه يصلي. إن إعصارا عاصفا، وإن ريحا صرصرا عاتيةً تهمهمُ الآن وبصوتٍ غليظٍ في قلبِ حسام. ثم حاولتُ أن أقرأَ له قليلا من كتابِ *نقد العقل* الذي لم يكن قد أنهاه بعدُ، ولكني تذكرتُ أنه يقرأُ كتبَه الفلسفيةَ بلغتِها الأصليةِ، وهو لا يحبُّ الكتبَ المترجمةَ. والحقُّ أن حسام يجيدُ أربعَ لغاتٍ، فأولاها اللاتينيةُ وقد تعلمها كي يكتبَ بها بحوثَه العلميةَ وكتبَه ومقالاتِه...إلخ، أمّا الإنجليزيةُ فإنما تعلمها لأنها كانت ضروريةً لدراسةِ الهندسةِ وهو لا يحبُّها ويظنُّ فيها ظنَّ السوءِ، وهو يقولُ عنها «إنها لغةُ الغوغاءِ»، والفرنسيةُ والألمانيةُ كي يقرأَ

الموادَ الفلسفيةَ. ولكني مع ذلك وجدتُ كتابَ سقفِ الكفايةِ، فسألتُه هل أقرأُ له شيئا، فقال لي:

– على هواك.

قرأتُ له:

«يؤجل الله امنياتنا ولا ينساها...»

قال:

– هذه جملةٌ رائعةٌ يا صديقي، هي جملةٌ رائعةٌ...

ولكن لنتوقفَ عند هذه اللحظةِ، ونستغلَ الفرصةَ، ونتكلمَ قليلا عن علياءَ، لا بوصفِها الحقيقيِّ، بل بوصفِها (هيلانة) ربّةِ الجمالِ:

إنه سيكونُ من العبثِ الذي لا طائلَ منه، وسيكونُ من الفراغِ المُسْرَفِ فيهِ لو بدأنا نصفُ *العلياءَ الملاكَ*، ذلك أننا لم نرَ سوى اصبعِها الإبهامِ، فكيف نسمحُ لأنفسِنا، والحالةُ هذه، أن نصفَها؟ وما الذي سنصفُه بالتحديدِ؟، ولكن لا مفرَّ يا أصدقائي من وصفِها، فذلك أمرٌ لا مناصَ منه؛ لأنَّه لمَّا كانت علياءُ ركنًا من أركانِ قصتِنا القصيرة، فإن قصتَنا القصيرةَ لن تقومَ لها قائمةٌ ما لم نشرعْ بالوصفِ هيلانةَ أولا! سنصفُها حتى لو اضطررنا أن نصفَها من الزاويةِ التي يراها حسامُ منها: أي أننا لن نصفَها هي حقًّا، بل سنصفُها كما هي في مخيلةِ حسام، ونقولُ:

إننا نرى فتاةً أشبهُ ما تكونُ بسكَارلِت جوهَنْسُن بشحمِها ولحمِها، نعم يا أصدقاءُ هي نفسُها الممثلةُ، والفارقُ الوحيدُ أن علياءَ لم تترشحْ لجوائزَ سينمائية، كما يجبُ ألّاْ ننسى أن علياءَ عربيةٌ، خلافَ سكارليت جوهنسن.

ومن إحدى صورِها تَظْهَرُ لنا هيلانةُ التي لا بدَّ أن تكون في نحوِ الثالثة والعشرين، مرتديةً فستانا ناعمًا، *ومع نعومته، إلا أنه يكادُ يجرحُ بشرتَها؛* كما يقول حسام.، إذن نقولُ إنها ترتدي فستانا ناعما يبيّنُ لنا فخذا ضخما متناسقا مع بقيةِ جسمِها، فخذا بلغَ من التناسقِ أن لو زادت ضخامتُه سنتيمترا واحدا لفسدَ الأمرُ كلُه ولَمَا حدثَ شيءٌ من هذه المأساةِ كلِّها، ولَبَلَغَتْ علياءُ من القبحِ مبلغا كبيرا. وإن من شأنِ هذا الفخذِ أن يسلبَ لبًّا هو لبٌّ مثلُ لبِّ حسام: لبٌّ مسرفٌ في المرضِ والخيالِ!

إن ما قلناه الآن هو وصفُ علياء في (٢٠١١) أيامَ كان حسام واقعا في حبِّها، فعلينا يا أصدقاء أن نضعَ أنفسَنا مكانَ حسام، ويجب ألا يمرَّ هذا الفخذُ أمامَنا مرورَ الكرامِ، ويجبُ أن نوفيَه حقَّه، وأن نتخيلَه بلذّةٍ كبيرةٍ، وإن لم نُوفِهِ حقَّه لكُنّا إذن مقصرين في حقِّ حسام.

نعود إلى ما كنا عليه، وهو وصولُنا إلى الدمام. لقد وصلنا إلى الدمام بعدَ ثمان ساعاتٍ. ثم بحثنا عن مكانٍ يقدمُ القهوةَ السوداءَ؛ ذلك أن حسام كان في نفسِه أن يشربَها، فوجدنا بعدَ قليلٍ مقهى رائقا ورائعا، والأهمُّ من هذا كلِّه أنه كان راقيا بسيطا، وكان يقدمُ الفطائرَ والوجباتِ. ثم نزلنا عندَه، وَأَنْزَلَ حسامُ كتابَه معه. أما أنا فلمْ أَنزِل بشيءٍ.

بعدَ أن نزلنا وطلبنا ما طلبنا، طَفِقَ حسامُ يقرأ...، ويقرأ...، ويقرأ...، *لقد سُكِب له حتى الآن ستةُ كؤوسِ قهوةٍ*، وفيما نحن نمارسُ طقوسَنا، *أنا على الجوال، وحسام يقرأ*، إذا سُمِعَ نقاشٌ يدور بين عائلةٍ، وأنني لأعتذرُ وأتأسفُ أشدَّ الاعتذارِ والأسفِ لأهلِ الدمام؛ ذلك أنني اضطررتُ أن أراقبَ هذه العائلةَ، وأسجّلَ ما يدورُ، وذلك عَمَلٌ من قِبلي يخلو من الأدبِ والحشمةِ خلوا تاما، ولكن هيّا فلنكمل: إن العائلةَ كانت مكونةً من رجلٍ كبيرٍ في نحوِ الخمسين من عمرِه، وهو من نوعيةِ الرجالِ الذين قد يتيحون لبناتِهم أن يتعرفنَّ شبابا، شرط أن يكونَ هذا التعرفُ جادّا ووسيلةً إلى ارتباطٍ فعليٍّ هو الزواجُ، ولا بدَّ أن يكونَ هو الأبَ، واضعًا نظارتين أسفلَ عينيه، ويبدو من شكلِه أنه يستطيعُ أن يحكمَ في قضايا كثيرةٍ، مثل: الحضارةِ، قطرَ، ترمبَ، الرؤيةِ، إنجلترا، تولستوي؛ ولكن هل هو فعلا يستطيعُ الحكمَ على هذه الأشياءِ؟ لستُ أدري. ثم هنالك الأمُّ وهي تضع غطاءً، ولكنَّ غطاءها هذا لا ينفي أنها قد تكونُ قضتِ الْأعيادَ الماضيةَ، إما في ساحاتِ نيويورك، أو في اللوفر. ثم هنالك آنستانِ رائعتانِ محجبتانِ جميلتانِ جدًّا: إن هيئةَ الأولى منهن توحي للمرءِ بأنها ستدخلُ سنَّها الرابعةَ والعشرين في الأشهرِ القليلةِ المقبلةِ، والأخرى فلا شكَّ أنها تَصْغُرها بسنتين، وهي التي من أجلِها إنما ننقلُ المشهدَ التالي:

إن الحديثَ كلَّه يدورُ عن الولايةِ: إن الجوَّ مفعمٌ بالفيمنزم! وإن هذا الاجتماعِ ستنتجُ عنه، بلا شكٍّ، أمورٌ مهمةٌ! وكلُّ أفرادِ العائلةِ متفقٌ على رأيٍ واحدٍ، وهو: أن نظامَ الولايةِ يجب أن يُزالَ الآن قبلَ بعدِ دقيقةٍ: *وتلك مسألةٌ وطنيةٌ تهمُّ الإنسانَ الحضاريَّ*، على حدِّ تعبيرِ البنتِ الصغرى. ولكنَّ

الاختلافَ الذي يحدثُ هنا بين هذه العائلةِ الكريمةِ يكمنُ في المسوِّغاتِ والموجباتِ القانونيةِ لهذهِ الإزالةِ. وليست الأحاديثُ في هذه العائلةِ تجري مجرى الارتجالِ والاعتباطِ! لا، بل إن كلَّ رأيٍ يقالُ في هذه العائلةِ يجبُ أن يدعمَ بأسانيدَ عقليةٍ ومنطقيةٍ.

حدثتْ جَلَبَةٌ كلاميةٌ بين أفرادِ العائلةِ، فقالت الأمُّ مخاطبةً البنتَ الصغرى:

- **ألا تستحين؟ استحي باللهِ عليك! هل هذا كلامٌ يقالُ؟**

قال الأب مرددا:

- **نعم، ألا تستحين؟**
- **كلُّه من غازي القصيبي...،**

هكذا قالت البنتُ الكبرى.

- **أهها، هو غازي إذن؟**

قالت الأمُّ كأنها تكتشفُ شيئا.

- **سأخرجُ من هنا، إن ورد اسمُ الدكتور غازي بسوءٍ.**

قالت البنتُ الصغرى بكلِّ غضبٍ، وقد ضربتْ بكفِّها على المنضدةِ، حتى لقد رشقَ شيءٌ من القهوةِ على ثوبِ الأبِ. فتردُّ عليها الأمُّ:

- **ليس غازي يا ابنتي شرطا من شروطِ الوصولِ إلى الثقافةِ! انظري إلى أبيك مثلا: إن لديه جعبةً ثقافيةً وهو الذي لم يضطرْ أن يقرأَ لغازي**

في يومٍ من الأيامِ. إنه يعرفُ الآن القليلَ عن اليونان القديمةِ. أين قرأتَ عن أثينا، أبا نورة؟

– من كتابِ البروفيسور عبدِ الله الجمعة.

هكذا قال الأبُ. فتردُّ نورةُ، البنتُ الكبرى:

– وهل أُتيحَ له أن يصبحَ بروفيسورا منذُ الآن؟ طيب! لكن، هل كتب الجمعةُ شيئا عن اليونان؟

قال الأب:

– قد لا يكون الجمعة تحديدا...

– !!

هكذا تعجبتِ الْأمُّ، قبل أن تفصلَ البنتُ الصغرى بالخطابِ قائلةً:

– كفى ثرثرةً! ولنعدْ إلى الولايةِ: أنا نفسي لا أدري ما هي هذه الولايةُ، إلّا بالتعريفِ اللغويِّ، ولا أدري ما هو هذا *الإسقاطُ* المزعومُ، وهل هو إسقاطٌ مجازيٌّ أم حقيقيٌّ؟ ثمَّ لا يبدو أن الولايةَ مشكلةٌ لي، ولكن لمَّا كُنّ النساءُ يُرِدْنَ إسقاطَها ، فأنا أريدُ أن أسقطَها أيضا، حتى لو كلفني ذلك نفسي! إن كلَّ امرأةٍ في هذا الوجودِ، هي بطريقةٍ من الطرقِ تكونُ أنا، وكلَّ امرأةٍ في هذا الوجودِ تنتمي إليَّ وأنتمي إليها؛ قضيتي قضيتُها وقضيتُها قضيتي، وجعُ النساءِ وجعي...،

تركنا العائلةَ الغريبةَ، ثم خرجنا من المقهى، وتوجهنا إلى شقتِنا التي تطلُّ على الخليجِ العربيِّ، ثم نمنا.

وعندَ الثانيةِ فجرا، انتبهت على حينِ غفلةٍ *كأن اللهَ قد أيقظني*، فرأيتُ مشهدا غريبًا:

رأيتُ حسام يرتدي بدلتَه العسكريةَ ويضعُ أوسمتَه، ويستعدُّ لأمرٍ لا بدَّ أنه أمرٌ عظيمٌ. فجلستُ على فراشي بهدوءٍ، ثم قمتُ ومشيتُ خفافا حتى وصلتُ إلى وراءِ كتفِه، وقلتُ له:

- **يا حسامُ؟ إنها الثانيةُ فجرا ماذا تهمُّ أن تفعلَ؟ هل أنت ذاهبٌ إلى مكانٍ ما؟**
- **نعم. إنني ذاهبٌ إلى مكانٍ ما. هـ ـو مـ ـكـ ـا نٌ مـ ـا من ضمنِ الأمكنةِ.**
- **إلى أين؟**
- **إلى بيتِ علياء.**

نسيتُ أن أقولَ لكم أن حسام قد استطاعَ أن يجدَ موقعَ البيتِ، من إحدى صورِ علياء.

لقد علمتُ مباشرةً أن حسامَ ليس على ما يرامُ. لعله وصل إلى المرحلةِ الأعلى من اليأسِ؟ لستُ أدري...،

قلتُ له:

- **حسامَ. الآن ننامُ. اخلعْ نعليك وزِيَّك، وغدا نتّجهُ معًا. إن الوقتَ غيرُ مناسبٍ الآن.**

لكنَّ حسامَ دفعني بيدِه القويةِ حتى كدتُ أسقطُ أرضا. إن التأثيرَ النفسيَّ آلمني أكثر من التأثيرِ البدنيِّ. دفعني إذن حسام ثم قال:

– ***Wir müssen jetzt gehen***[*] يجبُ أن أذهبَ؛ إنه مفترقُ طرقٍ. إذا لم أذهبْ اليومَ، فلا قيمةَ لكلِّ ما يحدثُ لاحقا. إن كلَّ شيءٍ رهنٌ بهذه اللحظةِ: إن كلَّ ما فعلتُه وحرصتُ عليه في حياتي سيكونُ هباءً منثورا إذا لم أتصرفْ، ***es soll eine Tat geben***.[**] تلك، يا محمدُ، مسألةٌ حساسةٌ، مسألةٌ تمسُّ الكيانَ الإنسانيَّ بأجمعِه، تمسُّ كياني الشخصيَّ بالتحديدِ، مسألةٌ تمسُّ وجودي وعالمي! أتريدُ، إذن، أن تكونَ حياتي غيرَ ذاتِ معنى؟ إنني خارجٌ مع هذا البابِ لا منعني اللهُ من ذلك.

– حرام عليك يا حسام هل هذا يعقلُ؟ ستمسكُ بك الشرطةُ إذا رأوك تحومُ حولَ منزلٍ في وقتٍ متأخرٍ من الليلِ.

– وما عساها تكونُ الشرطةُ بالقياسِ إلى ما أنا به الآن؟ هه، اسمع يا محمدُ: يجبُ أن أخرجَ، لا يوجدُ شيءٌ في هذا العالمِ يمكنُ أن يمنعَني من الخروجِ، إن خروجي نتيجةٌ حتميةٌ تاريخيةٌ، وإن حديثي معك الآن مسألةُ وقتٍ لا غيرُ. لقد خدمتُ الوطنَ وشاركتْ في معمعةِ الحروبِ، ولقد سددتُ مخالفاتي كاملةً، *ولقد أديتُ الحجَّ، لقد طفتُ يا محمد، لقد مررتُ بجنبِ اللهِ*، ألا يحقُّ لي، والحالة هذه، أن أرتكبَ ذنبا صغيرا؟ ذنبا صغيرا تافها لا قيمةَ له؟ وهنا

---

* بالألمانية: «يجبُ أن نذهبَ الآن»

** بالألمانية: «يجبُ أن نتصرفَ»

ارتفعت يدا حسام فقال: «يا ربِّ إني مذنبٌ ولكني مريضٌ، إن ما سأفعلُه خطيئةٌ ولكنَّ رحمتَك أكبرُ من الخطايا كلِّها: يا ربِّ، سأتوبُ لكن ليس الآن؛ سأتوبُ يا رب، لكنَّ أوانَ التوبةِ لم يئنْ بعدُ» *هنا جلس حسامُ على قدميه متضرعا، مرتديا زيَّه، يكادُ يكونُ باكيا*، وقال لي: رَحِمَ اللهُ أباك، لا تقفْ في طريقي: هل وقفتُ في طريقِك يوما؟ أمنعتُكَ من تحقيقِ مصلحتِك يوما؟ إذن لماذا تريدُ أن تقفَ في طريقي؟

أيقنتُ أنه ما من أملٍ يمكنُ أن يؤملَ في هذا الإنسانِ الموغلِ بالمرضِ. فقررتُ أن أذهبَ معه إلى منزلِ علياء.

الفصل الثالث

إن القصرَ الذي تقطنُه علياءُ يقعُ في حيٍّ راقٍ في الدمام، والقصرُ هذا يبدو للرائي من أولِ مرةٍ أنه قصرٌ سرمديٌّ لا نهايةَ له. لقد بزغَ نورُ الإنسانِ في الأمورِ التي لا تجعله إنسانا، وخبتَ نورُه في الأمور التي تزيدُ في انسانيته! إنه قصرٌ ذو أحجارٍ بيضاءَ ناصعةٍ البياضِ، تتركزُ على جوانبِه الأربعِ قلاعٌ كأنها مناراتٌ ضخمةٌ، وفي المنتصفِ توجدُ قبةٌ كبيرةٌ بُنيتْ، كما يدّعي حسامُ، على الطرازِ الرومانيِّ.

وعندما دُرنا على القصرِ وصلنا إلى الجانبِ الخلفيِّ. إن هذا الجانبَ مطلٌّ على شارعٍ ضيقٍ، وفي هذا الجانبِ نفسِه تقومُ حديقةٌ ذاتُ أزهارٍ كثيرةٍ، وهي أزهارٌ لا شكَّ أن علياءَ تمرُّ عليها فتقطفُها عندما تشعرُ بالضجرِ. *قطفُ الأزهارِ*؟، إنها مهنةٌ خليقةٌ بعلياء على أيةِ حالٍ.

ومن هذه الحديقةِ ذاتِ الأزهارِ الفرِحةِ الملونةِ الباعثةِ على السرورِ إنما قررنا الولوجَ مُتخفين إلى داخلِ المنزلِ.

بعدَ تجاوزِنا للحديقةِ، ملثمين، وصلنا إلى نافذةِ المنزلِ نفسِه. ولقد كان الجوُّ رطبا وكنتُ خائفا جدا، ولقد كانت السماءُ مخيفةً مرعبةً، أما حسامُ، الذي كان قد أتى بكتابِه معه فكان هادئا، شأنُه شأنُ الفلاسفةِ، ***لقد أُتيحَ له أن يقرأَ بضعةَ أسطرٍ في كلِّ مرة كنا نتريثُ في المسيرِ داخلَ الحديقة***، ومن النافذةِ إنما استطعنا أن نتأملَ داخلَ المنزلِ:

هو منزلٌ رائعٌ مليءٌ بالإنارةِ المُسرفِ بها حتى لقد يُشَكَّ في لحظةٍ من اللحظاتِ: أيوجدُ أثاثٌ أم لا! ثم بعد ذلك ولَجْنَا إلى المنزلِ نفسِه، لن أصفَ المنزلَ اتقاءً للكلامِ الكثيرِ، فوصوفُ المباني والبلكوناتِ تجدونها في سقفِ الكفايةِ؛ لذلك يجبُ أن أنتقلَ بكم، مباشرةً، ودونَ تأخيرٍ، إلى مشهدِ الدرجِ اللولبيِّ الذهبيِّ الذي سرني أن أراه؛ ذلك أنني كنتُ أراقبه دائما في المسلسلاتِ الكويتيةِ، ومن ذلك الدرجِ إنما بدأنا رحلةَ التاريخِ والتجوّلِ بين الغرفِ في الدورِ العلويِّ، حتى وصلنا إلى غرفةِ علياء نفسِها. إن هيلانةَ بشحمِها ولحمِها تربضُ خلفَ هذا البابِ.

وفي هذه اللحظةِ جاء وقتُ انسحابي.

لن أتكلمَ عن ما الذي رآه حسامُ هناك؟ هل رأى علياءَ، أم لم يرَها؟ وفيما لو رآها، هل كانت جميلةً، أم لم تكن جميلةً؟ وهل كان فخذُها يستحقُّ كلَّ هذا العناءِ، أم لم يكن كذلك؟...إلخ، كلُّ هذه أشياءُ لا تهمُّنا لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ، ***هذا فضلا عن أنني أنا نفسي لا أعرفُها***، لذلك

ساتركُ الحديثَ عنها، فأنتقلُ إلى اللحظةِ التي عدنا فيها إلى الفندقِ: إنها الخامسةُ فجرا، عندما حدث الآتي:

الفصل الرابع

لقد وجدتُ حسامَ مربوطا إلى حبلٍ في الأعلى، شانقا نفسَه. وبالجانبِ على المنضدةِ وجدتُ هذه الرسالةَ مكتوبةً بورقةٍ موضوعةً على كتابِ كَانْط:

«قُـل لـلحيـاةِ إن استـطعتَ وداعا

نصفُ الشجاعةِ أنْ تموتَ شجاعا..»

لقد نصحتَ لي، يا أيها الصديقُ العزيزُ، قُبيلَ سفرِنا أمس، أنني يجبُ أن أعيشَ حياتي باعتدالٍ، وأن أتركَ المَيَلانَ والإسرافَ واللهوَ، وأن أحاولَ أن أعدلَ من سلوكي...إلخ، وهذه نصيحةٌ جيدةٌ بالمناسبةِ، لكنك يا صديقي أهملتَ نقطةً مهمةً: هي أن الحياةَ لا تكونُ كاملةً بالاعتدالِ والصلاحِ، لأنه لو كان الأمرُ كما تقولُ لكانَت الحياةُ نظاما روتينيا قاتلا...،

أليست الحياةُ كلُّها صعودا وهبوطا وخروجا عن التيَّارِ؟ ولكن مع ذلك لا أقولُ إن ما حدث معي خروجٌ مُتعمَّدٌ عن التيارِ، لا، لا أقولُ ذلك، ولكنه في النهايةِ يسمى خروجا...، هه، ولكن ها أنت ترى أنني أعترفُ أنه كان عندي مشكلةٌ، ولكني أنا، نفسي، لا أرى أنني كنتُ في مشكلةٍ حقيقيةٍ: أنا في مشكلةٍ من الجانبِ النظريِّ، لكنني لستُ في مشكلةٍ في الجانبِ العمليِّ، أتعلمُ لماذا؟ لأن حياتي خلالَ هذه السنواتِ الستِّ السابقةِ قد اتّضحَ أثرُها وهدفُها، ولأنَّ حياتي ازدادت معنىً أيضا! هذا رأيي في حياتي

منذُ (٢٠١١)! ثم إنني أكادُ أجزمُ أنك تعتقد أنني ضيّعتُ عمري شقيا تعسا، باللهِ عليك، ألست تعتقدُ ذلك يا صديقي؟ ألا فاعلمْ أن علياءَ قد وهبتني من أسبابِ الحياةِ في ستِّ سنواتٍ فقط ما لم يستطعْ أيُّ انسانٍ آخرَ أن يهبَني حتى ولو في مئةِ سنةٍ. إنني أكلمُك جادا كلَّ الجديّةِ، بكلِّ قوايَ العقليةِ والجسديةِ، سليمَ العقلِ ما فيه ارتجاجٌ. ولكن مع (أسبابِ الحياةِ) هذه التي وُهِبتُها، إلا أنني لم أكن قد وُهبتُ السعادةَ الحقَّةَ! وحتى تنالَ السعادةُ يجبُ أن تدفعَ حياتَك ثمنا لها؛ ففي هذه الأرضِ لا يوجدُ غيرُ الشرِّ. ويستوي الآن في نظري كلُّ شيء: يستوي الموتُ والحياةُ، تستوي الصحةُ والمرضُ، يستوي في نظري كلُّ شيء. سأموتُ اليومَ بجوار الخليجِ العربيِّ.

...ولقد أنهيتُ قبلَ قليلٍ على شاطئِ هذا الخليجِ الذي ينتثرُ أمامَنا آخرَ صفحاتِ كتاب كانط، وإنني أحرّصُ عليكَ كلَّ الحرصِ أن تعيدَه معك، لأنه نسخةٌ ثمينةٌ مطبوعةٌ في القرنِ التاسعِ عشرَ. وإنني أيضا أورثُك مكتبتي كاملةً، وأورثُك حقوقي الأدبيةَ كاملةً عن كتابي في الاشتقاق، وكتبي في الفقهِ مضافا إليها بحوثي ورسائلي في أوكسفورد، كلُّ شيءٍ مُعدٌّ بأوراقٍ وبتواقيعَ، وما عليك إلا أن توقّعَ: إنك تستحقُّ أكثرَ من هذا، وما الأشياءُ هذه بجانبِك بالشيءِ المذكورِ. ولكن دعنا من هذه الأمورِ الحياتية، فإنني مشبعٌ بها الآن: تكادُ الحياةُ تخرجُ من أذني من فرْطِ ما روحي تغرقُ وتشعُّ بها، بهذه الحياةِ الرائعةِ. أليست الحياةُ رائعةً مع كلِّ ما بها من شرٍّ؟

لقد رأينا بيتَ علياءَ! ألم يكن بيتا ضخما؟ ما قولُك في تلك العمدِ الرومانيةِ؟...، عندما رأيتُه أولَ مرةٍ عرفتُ مباشرةً أنه بيتُها. قلتُ في نفسي:

«هو بيتُها» أتعلمُ لماذا؟ لأن انسانةً كبيرةً مثل علياءَ، لا يمكنُ إلا أن تسكنَ هذا المنزلَ. إنني أحبُّك يا صديقي حبا جما لأنك أتحتَ لي أن أحققَ آخرَ أمانيَ. ما هي الرياضيات يا محمدُ؟ الحياةُ Lemma لا تحققُ عملَها، إن الحياة لا شيء، إنها هباءٌ منثور، إنها صفر! ولكن مهما يكن فإن الرياضياتِ مهمةٌ. إن البحثَ الذي نشرتُه مهمٌ، إنني فخورٌ ببحثي هذا.

حاشيةٌ: قل لأمي لقد استطاع حسامُ، أخيرا، أن يعيشَ ولو لثلاثِ دقائق، في أمنٍ وسلامٍ»

انتهت،،،



-3-

الهنوف وما دار حولَها من أحداث

-النصُّ مُشَكَّلًا-

الهنوف وما دار حولَها من أحداث حزيران (يونيو) ٢٠١٧

@Raskolnekov

Twitter: @raskolnekov

Say At: https://Sayat.me/raskolnekov

Wordpress: https://muharrubaian.wordpress.com

Mail: muhammad.arrubaian@yahoo.com

Saudi Arabia, El-Qassim, 1st edition. June. 2017

..3rd editon. May. 2019

الاصدار الأول: حزيران (يونيو) ٢٠١٧

التعديل الثالث: أيار (مايو) ٢٠١٩

الفصلُ الأولُ

«فافرح، بأقصى ما استطعتَ

من الهدوءِ، لأن موتا طائشا ضلَّ الطريقَ إليك

من فرْطِ الزحامِ، وأجلّكْ..»

إننا في تموز (يوليو)، وكان على محمد الـ، أن يذهبَ إلى العاصمةِ، بل إنه قد وصل بالفعلِ منذُ منتصفِ الليلِ، وذلك لأمرين اثنين كان عليه أن يقضيَهما، سنتحدثُ عن الأولِ فقط، والأمرُ الثاني سينسابُ خلالَ القصةِ انسيابا متسقا. إن الأمرَ الأولَ هو أن عندَه موعدا في مستشفى العيونِ قد اقتربَ، وكان عليه، كما قلتُ، أن يستعدَّ له ويقضيَ منه مرةً واحدةً. *إنه يؤجلُ هذا الموعدَ منذُ سنةٍ ونصفٍ*، لقد وصلَ من القصيم إلى الرياض ثم إلى مسكنِه تحديدا في شارعِ (عنيزة) في منتصفِ ليلةِ الثلاثاء مُتَّبعا في ذلك خطةً كي يصلَ إلى بابِ الشقةِ بعد أن تكونَ زحمةُ السيرِ قد انتهت. «إن الإنسانَ في الرياض يكادُ يكرهُ نفسه من الزحمةِ»، هكذا قال محمدٌ لنفسِه فاقدَ الصبرِ والمزاجِ أثناءَ صعودِه إلى شقتِه. ومع كرهِه لهذه الزحمةِ فقد سَمِعَ مرةً أن (الميترو الجديد) سيخفّفُ من هذه الزحمةِ، ولكن محمدا لا يحبُّ، عادةً، أن يقطعَ برأيٍ في هذه الأمورِ ما لم يكنْ قد رآها بعينيه. وأمّا إن كنتم تريدون بعضَ التفاصيلِ عن هذا الموعدِ، فسأقولُ: إنه منذُ سنتين أو ثلاثٍ، بل لعلها أربعُ سنواتٍ بدأ محمدُ يشعرُ بأنه يفقدُ نظرَه، إنه

يشعرُ إن نظرَه بدأ يتلاشى: ولقد كانُ «شقةُ الحريةِ»، الكتابَ الذي كان يقرأُه عندما ذهب إلى مكانِ النظاراتِ وقرر إنه سيضعُ (نظّارةً).

لقد وصل إلى شقتِه إذن: إن شقتَه من غرفتين لا ثالثَ لهما، بالإضافةِ إلى مساحةٍ صغيرةٍ هي متران في مترين من المفترضِ بها أن تكونَ (صالةً)! دخل محمدُ شقتَهُ هذه، ولم تكنْ ساعةٌ حتى كان قد نام. وفي أثناءِ نومِه دار في خلدِه النائمِ أشياءُ كثيرةٌ: لقد رأى مثلا بؤبؤَ عينٍ يطاردُه في شوارعِ الرياض الذي لا يعرفُها، وخُيِّل له إنه يرى وجهَهُ قد صار وجها ذا عظامٍ فقط مثلِ ذلك الذي يستخدمُه القراصنةُ، وأن وسطَ هذا الوجهِ العظميِّ عينا كبيرةً مرعبةً تتجهُ إليه، ثم رأى أناسًا يطاردونه أيضا يريدون منه أشياءَ معينةً، ثم دخل في مبنى ما زال يُبنى، وفي هذه العمارةِ إنما وجد عيونا كثيرةً تنظرُ إليه! وقال عنها: «كأنها مصوبةٌ نحوي عن عمدٍ»، هكذا قال صديقُنا لنفسِه بالحلمِ. والمهمُّ أنه رأى أحلاما مزعجةً كثيرةً، والعينُ هي الرابطُ المشتركُ في هذه الأحلامِ جميعا. ثم فاقَ من نومِه على حينِ صدمةٍ في الثالثةِ مساءً، وقدّر أنه لن يعودَ إلى النومِ، فخرج من شقتِه، وركب سيارتَه وبدأ (يتجولُ) في شوارعِ الرياض. وطفقَ يسألُ نفسَه: «ترى ما هذه العيونُ؟»، ولكنه عَدَلَ عن هذه الأسئلةِ، ذلك أنه رأى أن لا فائدةَ من إطلاقِ الأسئلةِ، وأن الشرَّ كلَّه يكمنُ في طرحِ الأسئلةِ، ثم قال: «الأمرُ كلُّه خرابيط! وماذا في تلك العيونِ؟ أأنا أولُ شخصٍ يحلمُ بعيونٍ؟»، هكذا قال لنفسِه مفكرا في نظرِه الذي يزدادُ ضعفا مع مرورِ الأيامِ.

ثم وَمَضَتْ في فكرِه فكرةٌ غريبةٌ، وهي قرارُه أن يعملَ (سائقَ أجرةٍ). ولماذا (سائقٌ)؟ كي يحققَ ما بدا له أنه: (من عرفَ آلمَ غيرِه هان عليه

آلمُه)، ولكنه عاد يسألُ نفسَه: «ما شأني أنا بآلامِ الآخرين»، ثم قرر ألّا يعملَ سائقَ أجرةٍ.

وفي الليلةِ الثالثةِ، عادتْه نفسُ الأحلامِ؛ عيونٌ تطاردُه ومساكنُ ذاتُ عيونٍ، ومع مرورِ أيامٍ من وصولِه إلى الرياض بدأ يفكرُ قائلا: «ماذا لو أعودُ الآن إلى القصيم، وأؤجلُ الموعدَ إلى يناير القادمِ؟ وأيُّ ضررٍ في ذلك؟ إن فقدانَ النظرِ لا يحدثُ في يومٍ وليلةٍ، بل يحدثُ في زمانٍ طويلٍ، ولن أفقدَ نظري فيما لو أجّلتُ، ها!؟»، ولكنَّه قرر في النهايةِ أنه، مهما يكنْ من أمرٍ، فلا يجبُ تأجيلُ الموعدَ؛ ذلك أنه تقومُ على هذا الموعدِ مسألةٌ من مسائل النفسِ والعزيمةِ، وهي أن محمدًا، بواسطةِ هذا الموعدِ، يختبرُ نفسَه ويقولُ: «هل أنا مستعدٌ للتغييرِ أم لا؟»، نعم، هو يرى أن الموعدَ الذي ما انفكَّ يؤجلُه منذُ سنةٍ ونصفٍ، يراه محنةً وقعت عليه، وهو يحاولُ (بكلِّ قوةٍ) أن يتجاوزَها، حتى أنه، في بعضِ الأحيانِ، يفكرُ بمرحلةِ ما (بعدَ العمى)، وكان قد نوى منذُ مدةٍ لا تتجاوزُ الشهرين أن يتعلَّمَ لغةَ برايل منذُ الآن، حتى إذا فقدَ البصرَ رسميا، كان تَعَلُّمُ البرايلَ سهلا عليه.

إننا الآنَ في المساءِ من اليومِ الثالثِ لوصولِ محمد إلى الرياض، وكان قد قرر أن يعودَ فيعملَ (سائقَ أجرةٍ) وكان قد قدّم ما يجبُ عليه تقديمُه، وقد وصلته رسالةٌ من زبونِهِ الأوَّلِ: هي في التخصصيِّ، وتريدُ أن تذهبَ إلى مولٍ ما من المولات.

ركبتِ الْمرأةُ وكانتْ رائحةُ عطورٍ رائعةٌ منتشرةٌ، ولقد تذكر محمد *فجأةً* ما جاءَ عند أبي داودَ من حديثِ المرأةِ التي استعطرتْ فخرجتْ، وسبب

هذا التذكُّرِ واضحٌ كلَّ الوضوحِ جليٌّ كلِّ الجلاءِ، وهو أن السعوديين يملكون خاصيةً غريبةً، وهي أنهم مهما أوغلوا في البؤسِ أو في الكُفْرِ والإلحادِ أو في اللا–مبالاة، إلا أن ثوابتَ الدينِ تظلُّ راسخةً في مزاجِهم على طولِ الخطِّ، فيحدثُ لك أن ترى سعوديا في ملهى إباحيٍّ في الخارجِ يدافعُ عن ابنِ تيميةَ، ويجادلُ سعوديا آخرَ لا يحبُّ ابنَ تيميةَ، وهذا، بطبيعةِ الحالِ، شيءٌ معروفٌ عندنا في السعوديةِ لا حاجةَ لذكرِه هنا وهو من نافلِ القولِ، ولكن مهما يكنْ من أمرٍ فإن الرائحةَ لم تغرِ محمدا؛ ذلك أنه لم يكن من طباعِه أن يفكرَ بالنساءِ، بل كان كلُّ ما يفكرُ به *هذا الوقت* عيناه دائما، ولا يجدُ وقتا للتفكيرِ بالملاهي والملذاتِ.

إن عباءتَها مفتوحةٌ!

وحينما أغلقتِ البابَ، واستقرتْ راكبةً، كان قد صدر منها تنهيدةٌ، هي تنهيدةٌ قاسيةٌ تناسبُ حالِ امرأةٍ اضطرتْ إلى طلب *سائق أجرة*، ولعلَّ مصدرَ هذه التنهيدةِ كان من أقصى الروحِ، معبرةً عن أشياءَ خاصةٍ، وبعد تنهيدتِها أصدرت أوامرَها، ومدّت سبابتَها نحوَ بغيتِها، وقالت ما يجبُ أن يُقالَ عندَ ركوبِ سيارةِ الأجرةِ، وكان قد ظهرَ، بعد أن استقرت جالسةً، جزءٌ من جينزِها الذي كانت ترتديه، هو الزرارُ بارزا خلالَ فتحةِ العباءةِ، ولقد بانت منه لمعتان! وكان التيشيرت مرتفعا إلى القدرِ الذي يكونُ فيه الزرارُ واضحا. ولقد فكّر محمدُ قائلا: «ما أروعَ هذه اللمعةِ!»، فما كان منه، بعد ذلك، إلا أن أخرجَ ورقةً صغيرةً بكلِّ هدوءٍ وكتبَ رقمَه *الخاصَّ* عليها، ومدَّها إلى المرأةِ الفاتنةِ، دون خوفٍ أو ارتباكٍ أو تحرّجٍ، وكأنه كان يمدُّ إليها ما بقيَ من المالِ.

قالت:

– قليلَ الأدبِ! *إن بناتِ الرياض يعشقنَ جملةَ: قليلِ الأدبِ.*

– هو رقمٌ عاديٌّ من الأرقامِ، خذيه، وقد تحتاجينه لاحقا!

إن الهدوءَ الذي كانَ يتصفُ به محمد في تلك اللحظةِ قد يكونُ هو الداعي إلى أن المرأةَ الجميلةَ لم تِصح ولم تصرخْ ولم ترفعْ صوتَها، بل الأدهى من ذلك إنها أخذتِ الرقمَ.

ولكن في تلك اللحظةِ ذاتِها، أي عندما أعطى الرقمَ المرأةَ، لا أحدَ يعلمُ لماذا سرَت هذه الذكرى القديمةُ على بالِه: لقد تذكرَ، فجأةً، في حينِ غفلةٍ سريعةٍ هي ثانيتان لا أكثرُ، أنَّ أخاه قد وصّاه يوما بأن يأتيه بغرضٍ ما من الأغراضِ؛ ذلك أن أخاه قد أصيبَ بحادثةٍ فلا يستطيعُ القيادةَ؛ إلا أن محمدا ماطَلَ أخاه كثيرا فلم يأتِ بالغرضِ، فلم يجدْ أخوه إلا أن يقولَ له بعد أن صبر طويلا: «يا أخي لا تمننْ علينا! إنه مجرّدُ غرضٍ صغيرٍ، ولو لَمْ أكنْ مصابا لجلبتُه بنفسي، لكن كما تشاء، أنا مريضٌ، إن بي مرضا...إلخ»، وما كان ردُّ محمد إلا أن قال: «كلُّنا عندنا أشغالٌ! وكلنا نريدُ أغراضا ما، إن الحياةَ كلَّها متعلقةٌ بجلبِ الأشياءِ، وكلُّنا مرضى! لستَ وحدَك المريضَ! ما نحن بأصحاء: أنت لا تستطيعُ المشيَ، وأنا لا أستطيعُ أن أرى جيدا! كلٌّ منّا لديه مشكلتُه الصغيرةُ. كف عن المسكنةِ!».

وبعد أن أوصَلَ المرأةَ إلى بغيتِها، عاد فنزل في أحدِ الأماكنِ التي تقدمُ وجباتِ العشاءِ، وطلب لنفسِهِ بُرْقَرًا معه بطاطسٌ، وبيبسيًّا، ثم التهمَهما في هدوءٍ وعافيةٍ، قبل أن يختمَ عشاءَه، أخيرا، بناقتز قطعِ الدجاجِ، وأثناءَ ما

كان يختمُ الوجبةَ، إذا علا في الجوِّ صوتُ عياطٍ وصراخٍ؛ ولقد حدثتْ مضاربةٌ.

نعم، إن أشخاصا تعرضوا للضربِ...،

الفصلُ الثاني

سأقصُّ عليكم ما حدثَ باختصارٍ شديدٍ، ذلك أن البلبلةَ التي حصلت في المطعمِ لم تكن مدرجةً ضمنَ سيرِ قصتِنا؛ أي أنها جاءت عَرَضًا، ولكن لا بأسَ، فَلنحكِها:

بعد أن انتهى المواطنُ (س. ج) من تناولِ طعامِه، أخذَ الطبقَ ورماه على الأرضِ، وصار عياطٌ كثيرٌ، ثم تطوّر الأمرُ، وَجِيءَ بصاحبِ المطعمِ كي يبتَّ بالقضيةِ ويحكمَ فيها حكما نهائيا، وقد نوقشت نقاطٌ كثيرةٌ، وفُنّدت نقاطٌ أُخرُ، وقوطع كلامٌ طويلٌ، وأُطلقتْ صرخاتٌ متعددةٌ، وعُرِف السببُ أخيرا، وهو أن الذي أعدَّ الوجبةَ أضافَ إليها كاتشب مع أن المواطنَ شدَّد على عدمِ إضافتِه! ثم سُمعت كلماتٌ مثل: «سَوّ الي تبي بيديك ورجليك لكن ليس في مطعمي! اطلع برا!!»، وأخيرا انتهى الأمرُ بأن طُرِد المواطنُ من المطعمِ وعدمِ عودتِه مرة أخرى.

وما إن خرج (س. ج.) حتى تبعه محمد، بين أزقّةٍ مظلمةٍ، تتبّعا بلغ من الغموضِ أنه يصلحُ أن يكونَ مشهدا سينمائيا، ثم صَوَّتَ وقال له، من بعيدٍ، وهو لمَّا يصلْ إليه بعدُ، وكان يرسلُ إليه نظراتِ حذرٍ واستغرابٍ وفضولٍ:

- عسى ما شرّ؟ ماذا حدث هناك؟

- ههاه...؟ لا شيءٌ! هل معك...، ولّاعةٌ؟
- خذ، تفضّل! هذه ولّاعةٌ.

فوجدا في مكانٍ قريبٍ مكانا يُجلسُ فيه، فجلسا، فبدأ المواطنُ يقولُ، وهو يشعلُ السيقارةَ، مُتّجها بنظرِه -كلَّ لحظتين أو ثلاثٍ- إلى محمد:

- اطمئن، لا شيءَ مقلقٌ! إن ما حدث مجردُ اختلافٍ بوجهاتِ النظرِ والآراءِ. لو أن الناسَ اتفقوا في كلِّ شؤونِهم ولم يختلفوا، لكنا كما نحن، ولَمَا تطورنا، ولَمَا كان هناك رؤيةٌ، ولَمَا تقدمنا خطوةً إلى الأمامِ! كم هو عمرُكَ؟
- خمسٌ وعشرون!
- خمسٌ وعشرون؟ آه. أما أنا فكان عمري خمسا وعشرين في العامِ ألفين وثلاث:

«أمَا تَعِبْتُ ارْتحالا أيُّها الساريْ!»

أما الآن فأوشكُ أن أبلغَ الأربعين، ولقد مرضتُ حينما بلغتُ الثالثةَ عشرة، ومنذُ مرضتُ حتى الآن، مرت أزمنةٌ طويلةٌ جدا، لقد عشتُ طويلا جدا، لقد شهدتُ مراحلَ اللعبةِ كلَّها، لقد عُمّرتُ وبلغتُ من العمرِ عتيا، ومع ذلك، ومع هذه السنينِ الطويلةِ المسرفةِ في الطولِ، فأنت تراني لم أبلغْ الأربعين بعدُ: إنني لم أُعمّرْ فعلا! إن الحياةَ مؤلمةٌ وقاسيةٌ وطويلةٌ موغلةٌ بالطولِ مسرفةٌ فيه، ويجبُ أن تعاشَ! فلا خيارَ لديك: تتألمُ؟ تكرهُ الحياةَ؟ ليس مهما، وقد مرَّ عليَّ مرةً قولٌ شاطحٌ إن الحياةَ بوجهٍ من وجوهِها يمكنُ أن تُعدَّ إثراءً الإنسان (أي نعمة!!)، ولكن من يتبنى هذا الرأيَ؟ من قالَه؟ إنهم المنعمون!

الحياةُ يمكنُ أن تعدَّ نعمةً لأولئك المنعمين، أما غيرِ المنعمين، فلا يمكنُ أن تعدَّ نعمةً! بل هي نقمةٌ إبتلانا الله بها. آآه يا ..؟

– محمد.

– آآه يا محمد، مسكينٌ الإنسانُ، إن عليه واجباتٍ كثيرةً يتعينُ عليه أن يؤديَها، وآلاما كبيرةً يتعينُ عليه أن يعيشَها، وديونًا ضخمةً يتعينُ عليه أن يدفعَها، ثم بعد ذلك كلِّه، قد يسمحُ له القدرُ أن يموتَ! ولكن لماذا هذا كلُّه؟ عند القدماءِ يقولون إن هذه هي الضريبةُ التي يدفعُها بنو آدمَ عن خطإٍ أبيهم الأولِ، وذلك في رأيي خيالاتٌ وبهتان: إن الإنسانَ لا يؤاخذُ بموبقاتِ أبائِه، مع أنه يؤاخذُ أحيانا ولكن ليس بهذا الشكلِ! آه يا محمد، إن الإنسانَ تعرّضَ لمصاعبَ، ولكنه تقدّم خطوةً نحو الأمامِ+ لقد اعترضَ وثار وقال «لا» أكثر من مرةٍ، في سبيلِ ماذا؟ في سبيلِ أن يعيشَ هذه السنواتِ الطويلةَ بسلامٍ، في سبيلِ الحريةِ: إن الإنسانَ يبذلُ ما هو ماديٌّ كي ينالَ ما هو روحيٌّ، وهذه هي ميزةُ الإنسانِ التي تفرقُه عن البهيمةِ، وتبعا لهذا البَذْلِ والارتباطِ، صار الروحيُّ مادةً. ومن هنا بدأتْ معاناةُ الإنسانِ. وخطيئةُ الإنسانِ الكبرى هي أنه ما زالَ يتنفسُ على ظهرِ هذه الأرضِ، وأنا أنصحُ الناسَ كلَّهم وأقولُ: يا بني الإنسان، إني أقولُ لكم، ما الذي يبقيكم هنا وقتا أطولَ؟ اهربوا من هذه الخليةِ السرطانيةِ وأنهوا حيواتِكم قبلَ أن يفوتَ الوقتُ...،

– وأنت لماذا لم تنهِ حياتك؟

- لم أنهِها لأنني جبانٌ، ومريضٌ. والجبنُ أسوأُ من المرضِ! إن أكثرَ الناسِ حظا الذين لم يولدوا.

ثم ترَكَ محمدُ المواطنَ، وعاد إلى سيارتِه، وكان قد خرجَ بشيءٍ من لقائه بذلك الشيخِ، لقد أبانت له جلستُه مع الشيخِ أشياءَ كثيرةً، لقد نجحَ في أن يرى ذلكَ الخيطَ الذي يربطُ الناسَ ومصائرَهم.

الحياة تعاقب الناسَ، لكنها قبلَ أن تفعل ذلك تسخر منهم؛ إن المأساةَ وحدها مملةٌ.

لقد استطاعَ محمد أن يشهدَ كيف تعملُ الآلةُ الكبرى، لقد استطاعَ أن يمسَّ تلك الآلةَ بيدِه. لا نقولُ أنه فَهِمَ كيف تعملُ، بل نقولُ رأى كيف تعملُ: إن من أهمِّ المسائلِ التي كان يبحثُها محمد هي مسألةُ الثروةِ، ولقد كان يبحثُها لأنه من الذين عانوا منها؛ إنه لم يفهمْ في يومٍ من الأيامِ سرَّ توزيعِ الثروةِ (والحظ والمال..إلخ) بين الناسِ، وكان قد جزمَ أنه لن يفهمَه يوما، أما لماذا جزم؛ فلأنه بحثَ واستخدمَ جميعَ الأدواتِ العقليةَ والمنطقيةَ والمعرفيةَ، فلم يصلْ إلى حلٍّ: إن فكرةَ اعتباطِ الثروةِ بينَ الناسِ لم تعجبْه ولم يتقبلْها قط في حياته، وهي المسألةُ الوحيدةُ التي لم يفهمْها في مسائل الإيمان. لكنه، اليومَ، استطاع أن يرى مسرحيةَ الله، عوضا عن فهمِ القدَر، استطاعَ، كما في تعبيرِ هيجو، استطاعَ أن يرى مسرحيةَ الله على الأرض، لقد رأى بأمِّ عينِه ما لم يستطعه الآخرون.

تُرى ماذا يمكنُ أن يعطيَ الفقرُ الفقراءَ؟ ما الذي يحصلُ عليه الفقراءُ بسببِ فقرِهم، ولا يحصلُ عليه الأغنياءُ؟ إنها الملاحظةُ الفلسفيةُ: إن

الإنسانَ عندما لا يجدُ الخبزَ، فهو عندئذٍ يضعُ الخبزَ بمقامِ الحياةِ؛ لأنه إن لم يجد الخبزَ ماتَ: إن الخبزَ هنا هو عصبُ الحياةِ! وما الذي عندَ الأغنياءِ ويُمكنُ أن يُعَدَّ بمقامِ الحياةِ؟ لا يوجد: إن من الأغنياءِ من لا يخشون شيئا، ولا اللهَ؛ لذلك كان الفقيرُ يملكُ ألفَ حياةٍ: الخبزُ حياةٌ، اللحمُ والدجاجُ حياةٌ، الجبنُ حياةٌ...إلخ، وهذا ما يستحثُّ الملاحظةَ عنده ويجعلُها مستثارةً، أما الغِناء فيجعلُ على عينِ صاحبِه غشاء.

وأكملَ عملَه سائقا ساعتين ثم عاد إلى غرفتِه في شارعِ عنيزة. وكانت قد هددته فتاةٌ بأنها ستفضحُه في تويتر، في حسابٍ خاصٍّ لفضائح القباطنةِ السائقينِ، إذا لم يوصلْها مجانا.

وحينَ وصلَ غرفتَه، أعدَّ لنفسِه شايا، وشابورا، *ذلك أنه شعرَ أنه من الجائز أن يكونَ جائعا جدا*، وبينما كان يأكلُ (الشابورةَ) تذكرَ، فجأةً، أنه قد انتهى قبلَ قليلٍ من تناولِ العشاءِ في المطعمِ! وسألَ نفسَه: «لماذا أكلتُ مرتين يا ترى؟ هل فقدتُ الإحساسَ بالجوعِ؟»، لذلك قام من جلستِه وأخذَ طبقَ الشابورِ وأعادَه إلى المطبخِ، وبينما هو عائدٌ إلى الصوفةِ، جانبَ السريرِ، إذ سمع البابَ يُطْرَقُ.

إنها العاشرةُ قبلَ منتصفِ الليلِ: تزيدُ أو تنقصُ قليلا. وحين استمعَ محمد البابَ يطرقُ خرَّ صعقا، وخافَ! من قد يقدمُ إليه الآنَ؟ ولم يعرفْ هو، نفسُه، لمَ كان خائفا!.

فتحَ البابَ.

إن الداخلَ سمينُ الشكلِ: بل إن الواقفَ كان سمينَ الشكلِ، ذلك أنه لمَّا يدخلْ الشقةَ بعدُ. وكان ينظرُ إلى محمد نظراتٍ غريبةً لم يستطعْ محمدٌ أن يدركَ كنهَها.

قال محمد:

- **نـ... نـعـم؟**
- **أنت محمد الـ..، من القصيم؟**
- **نعم! أنا هو مـ...ـاذا تُـ...ـريـ....ـد(؟!)**
- **ألم تعرفْني؟ منذُ أعوامٍ، العامَ ٢٠٠٣، حيُّ الشَّفا؟ ابراهيمُ الـ..؟ ألم تتعرفْني، لقد مرَّ زمنٌ طويلٌ؟ لقد رأيتُك منذُ قليلٍ وأنت تنزلُ من سيارتِك، فقلتُ لنفسي: «هل من الممكنِ أن يكونَ هو نفسُه، هل من الممكنِ أن تتفضلَ علينا الطبيعةُ فتأتي به مرةً أخرى بعدَ عشرين سنة؟»، إنها عشرون عام..**
- **كيف تكون عشرين منذُ ٢٠٠٣؟**
- **....فذهبتُ فاستفسرتُ من العاملِ، فقال لي إنه يسكنُ في غرفةِ كذا وكذا، ولكن مع ذلك انظرْ إلى الأجانبِ! إنهم يأخذون أعمالَنا، لا نكادُ نجدُ لنا قوتا، ..الرؤية!!؟.. هل نحن في الوطنِ أم في الزمالك؟ أجبني!...، معي بكلريوس محاسبةٍ، هل هذا يعني أن راتبي قد يصلُ إلى مليون بالسنةِ؟ هذه خرافاتٌ أدبيةٌ...، لقد تطرّقَ أبو عبدالرحمن، إلى هذه المشكلةِ نفسِها، وقال: أولُ العلاجِ الكيُّ، هذه عبارتُه! أبو عبدِالرحمن هو نفسُه صديقُنا عبدُالمحسن، هل تذكرُه؟ نعم لقد أصبحَ الآن طالبا في كليةِ علمِ النفسِ! إن فرويد**

عندَه بمثابةِ رسولٍ من الرسلِ! كم سيدومُ انبطاحُنا للغربِ؟ هه؟...، ولقد طرَح هذا السؤالَ في ندوةٍ في الأسبوعِ الماضي، وقال: «هل الإنسانُ قابلٌ للإصلاحِ أم لا؟ وإذا كان الإنسانُ قابلا لذلك، فماذا عن المرأةِ؟»، ثم استشهدَ بأرسطو، وانتهى إلى أن الإنسانَ لا يمكن إصلاحُه إلا بأن يضربَ بخيزرانةٍ...، لقد كبرنا يا صاح؟ كم كانت أعمارُنا؟ لقد كنا صغارا نُربى! لقد كان أهلونا يقرصون أذانَنا، ولماذا؟ من أجلِ أننا سكبنا بيالةَ الشاي على *الزوليةِ*!، وهل تعدُّ هذه *الزوليةُ* شيئا ذا بالٍ بالقياسِ إلى أذانِنا...، إننا أوادمٌ في نهايةِ المطا...، ومع ذلك كنا نعيشُ... نعم، الأيامُ دُوَلٌ. اسمع: لماذا لا تذهبَ معي، الآن؟

- **إلى أين؟**
- **إلى استراحةٍ. هي استراحةُ الأصدقاءِ. نجتمعُ هناك، وأريد أن أعرفَك عليهم.**

إن ابراهيمَ هذا مُسَجَّلٌ بأوراقِ الحكومةِ أنه يعملُ في قسمِ المحاسبةِ في الاستخباراتِ، وهو ذو مكانةٍ مقربةٍ من اللواءِ الشيخِ سالم الـ، ويقالُ إن ابراهيمَ هذا، في الحقيقةِ، لا يعملُ شيئا يمتُّ بصلةٍ للعملِ الاستخباراتيِّ، وعملُه الفعليُّ هو مرافقةُ اللواءِ سالمٍ أينما حلَّ وارتحلَ: إلى المناسباتِ، إلى الدعواتِ الرسميةِ، الاستقبالاتِ الرئاسيةِ، العرضاتِ العسكريةِ...إلخ، وعندما يقررُ اللواءُ أن يعتمرَ ويَطَّوَفَ بالبيتِ الحرامِ، فهو يأخذُ ابراهيمَ معه إلى قبلةِ المسلمينِ؛ أي أن ابراهيمَ هنا هو كبهلولِ الملكِ

لير، إلا أن ابراهيمَ لم يكن بهلولا، بل موظفا رسميا ذا مرتبٍ! واللواءُ يرتاحُ له لِما يتمتعُ به ابراهيم من ظرافةٍ وخفةِ دمٍ.

رأى محمد أنه لا بأسَ من الذهابِ، بل أنه رأى، لاحقا، بعد دقيقةٍ كان قد أعملَ التفكيرَ فيها، أنه يجبُ أن يخرجَ ويختلطَ بالمجتمعِ، حتى لا يوغلَ بالمرضِ مزيدا من الإيغالِ. ونحن *بـالمرض* نقصد المينتال: الأفكارَ والهواجسَ التي تعصف بذهنِه، لا الفيزكل: *ضعفَ بصرِه*.

ثم اتجها إلى الاستراحةِ.

فوصلا.

هو حوشٌ (ساحةٌ) صغيرٌ من ترابٍ وطينٍ، كما هو الإنسانُ، يَفصِلُ بابَ الاستراحةِ الخارجيَّ عن بابِها الداخليِّ، وحينما يقطعُه القاطعُ المارُّ يرى أنابيبَ شيشةٍ مصفوفةٍ على الجانبِ، لعله سيُبْدأُ في إعدادِها بعدَ قليلٍ. وعندما تدخلُ المسكنَ نفسَه ترى ممرا طويلا به ثلاثُ غرفٍ، بعضُها بجانبِ بعضٍ على التوالي، وفي الغرفةِ الأولى إنما كان خمسةُ عشرَ رجلا، ليسوا من أجلِ صندوقٍ، وليسَ كلُّهم سكانَ هذه الاستراحة، بل إن منهم زملاءَ يأتون، ثم يعودون إلى بيوتِهم: أربعةٌ من هؤلاء الخمسةِ عشر يلعبون البلوتَ في زاويةٍ قاعدين، وأربعةٌ آخرون يلعبون أيضا، أخذوا زاويةً ثانيةً، وأربعةٌ ثالثون أيضا يلعبون في زاويةٍ ثالثةٍ، والثلاثةُ الباقون لم يلعبوا، بل كانوا يتبادلون الحديثَ، وإلى هؤلاء الثلاثةِ إنما انضمَّ صديقانا، محمدُ وصديقُه القديمُ، ولقد أُستقبلَ محمدُ استقبالا حسنا.

لقد أُستقبلَ إذن، والحقُّ أنه أُستقبلَ استقبالا يليقُ بشخصٍ جاءَ من القصيمَ رأسا. وتمَّ التعارفُ، وقُدّمَ إليهما شايٌ، وسألَ أحدُهم محمدا فقال له: «هل تعتقدُ أن سابكَ حَبَّةٌ أم قُبَّةٌ؟»، ولم يستوعبْ محمدُ شيئا، بل إن كلَّ ما فعله هو التحديقُ. إن أناسا كثيرين يعيشون بيننا، لا يفعلون شيئا في هذه الحياة إلا أن يحدقوا بالأشياءِ والوجودِ. وبعد ذلك، نُسيَ صديقُنا محمدُ، بسببِ أن *مواضيعَ يُعْتَقَدُ أنها شيّقةٌ*، وقد تكونُ غيرَ كذلك، كانت قد قامت بين هؤلاءِ الثلاثةِ وابراهيمَ، وَوَجدَ محمدُ نفسَه بعد دقيقتين مستمعًا منصتًا داخلا معهم في صلبِ موضوعِهم الذي كانوا يتحدثون فيه، والحقُّ أن محمدا كان قد سمعَ قبلِ دخولِه الغرفةَ أطرافَ كلامٍ مثلِ: «بتروكيماويات وبتروكيمكالز»، ويبدو أن الكلامَ كان يدورُ على: «هل السعوديةُ قادرةٌ على تصديرِ المنتجاتِ أم لا؟».

فيقولُ شخصٌ أوَّلٌ:

- ...مع أنك تقلّلُ من شأنِ سابك، إلا فاْعلم أنه شُوهِدَ في مستشفياتِ دولةِ المجر قِناعاتٌ طبيةٌ مستوردةٌ من السعوديةِ ومن سابك تحديدا، وهذا يُعدُّ انجازا.

فيقولُ الثاني، الذي لا ريب أنه كان يقللُ من شأنِ سابك:

- عِدَّه عبثًا، لا إنجازا، يا صديقي، عِدَّه ماذا؟ عده عبثًا، لا إنجازا! هي كمّاماتٌ...، *ودعنا نسمي الأشياءَ باسمائها*، [هكذا قال المُقلِّلُ من شأنِ سابك الجملةَ الأخيرةَ وهو ينظرُ إلى محمد باعتبارِه ضيفا جديدا ويودُّ اقناعَه بالحجةِ، وضمَّه إلى صفِّه]: هي كمّاماتٌ لا أكثرُ

ولا أقلُّ، ولكنك تسميها «قناعاتٌ طبيةٌ» حتى توهمَنا أنها منتجٌ مهمٌّ، حتى توهِمَ نفسَك، أن القناعَ كالمشرطِ أو البروفين أو شيءٍ من هذا القبيلِ، بينما هي بلاستيك لا غيرُ...، ثم إنهم يستوردونها منا لأنَّ أحدا لا يريدُ أن يكلّفَ على نفسِه فيصنعُها، فهي لا تسمنُ ولا تغني من جوعٍ؛ إن البلاستك مضرةٌ بالبيئةِ، إنهم يتكلمون الآن عمّا يُدعى طبقةُ الأوزون، والاحتباسُ الحراريُّ، وأنت تقولُ: أقنعةٌ؟ اتقِ اللهَ... (صَنْ) الناسُ مشغولون بالأجهزةِ واقتصادِ المعرفةِ...

- نعم، **Knowledge Economics**

يقولُ الأولُ المصابُ بحمّى الوطنيةِ:

- أولا: ليست: **Economics** بل: **Economy**، لأن الأولى صفةٌ، والثانيةَ اسمٌ، ثم، ألم تسمعْ إذن عن المشروعِ الجديدِ الذي سيقومُ بين سابك وشركةِ هونداي؟ والذي خلاله ستُصنعُ سيارةٌ جديدةٌ؟
- هل تقول إن سابك (للبتروكيماويات والمعادن) ستصنعُ سيارات(!؟) إنها لَقِصَّةٌ جديدةٌ تلك التي أسمعها!
- لا، لن تصنعَ هي نفسُها، بل ستتكفلُ بتوفيرِ القطعِ من مصنعِها! ثم إن اسمَها بتروكيمكالز، وليس بتروكيماويات!
- ومن سيحيلُ القطعَ إلى سيارة، ويركبُها؟
- هونداي!
- إذن، الصانعةُ هي هونداي، لا السعوديةُ؛ اللهمَّ إن هونداي غيّرت المكانَ فقط، فبعدَ أن كانت تصنعُ سيارتَها في كوريا، صنعتْها في

السعوديةِ، هذا كلُّ ما في الأمر! لماذا تكبرُ الموضوع، لقد جعلتني أشعرُ أنني ألمانيٌّ!...، أما وسائلُ الصنعِ والأسلوبُ والدقةُ والخبرةُ، كلُّ هذه الأشياءِ ستكونُ كوريةَ الستايل، لا سعوديةَ! ولا حتى سابك لها شأنٌ؛ ذلك أن سابك تخصصُها في الصناعاتِ الأساسيةِ والبتروكيماوية، وهي ستتكفّلُ فقط بتوفيرِ القطعِ.

- وهل تتوقعُ أن القطعَ هذه التي تستخفُّ بأمرِها، هل تتوقعُ أنها قطعٌ عاديةٌ؟ إنها قطعٌ لا توجدُ إلا في سابك، أو قُل لا يوفرُها إلا سابك! ثم إن اسمَها: «بتروكيمكالز»، بِـ ـتْـ ـرُوُكِـ ـيِـ ـمِـ ـكَـ ـاَلْـ ـزْ، وليست بتروكيماويات! لا تعبثْ بالمصطلحِ أرجوك!
- أنا لا أنكر حقَّ القطعِ، لا شكَّ أن القطعَ مهمةٌ، إني أعترفُ بهذا، ولكن ما لا أعترفُ فيه هو أن سابك هي من صنعتِ السيارةَ! لا تخلط بين الأمرين...،

وفجأةً نهض بالصوتِ الشخصُ الذي يفترضُ به أنه ينكرُ فضلَ شركةِ سابك على الوطنِ، وقال لمحمد:

- وأنت ما رأيُك يا أبا نورةَ؟

ذلك أن صديقَنا محمدَ يُكنّى بأبي نورةَ، وقد استطاعَ الأصحابُ من معرفةِ ذلك، حتى قبلَ أن يعرفوا اسمَه الأولَ، وقال محمد مرتبكا:

- هممم، قد يكونُ ذلك صحيحا!

ولم يعرفْ أحدٌ من الذين كانوا موجودين ما المقصودُ بكلمةِ «ذلك»، وأي الطرفين من النقاشِ كان يؤيدُه محمدا!.

الفصلُ الثالثُ

الألمُ أو المرضُ نوعان: الأولُ مرضٌ ذو ألمٍ مثلِ ألمِ الأسنانِ، أو ألمٌ المفاصلِ...إلخ، والثاني مرضٌ غيرُ مؤلمٍ. ويمكنُ أن يقالَ إن أسوأَ المرضين النوعُ الثاني غيرُ ذي الألمِ لسببٍ واحدٍ هو أن المرضَ الذي يصاحبُه ألمٌ يحفزُ ويدفعُ المريضَ إلى العلاجِ، والمرضُ غيرُ ذي الألمِ يجعلُ المريضَ مهملا ومسوِّفًا؛ ذلك أنه لا شيءَ يدفعُه إلى العلاجِ.

والنوعِ الثاني من الأمراضِ هو ما أصيبَ به محمد! ولكن، إن صحَّ أن محمدا لا يشعرُ بألمٍ في عينيه، إلا أنه يشعرُ بضعفٍ في بصرِه.

والحقيقةُ أن هذه مشكلةٌ قد أزعجتْه كثيرا، ودخلَ بسببِها بموجاتِ اكتئابٍ صعبةٍ، وكان يشعرُ أحيانا أنه إنسانٌ ضعيفٌ، وأنه سينتهي به المآلُ مريضا، وأنه سيعاني لسنواتٍ طويلةٍ قبل أن تسمحَ له الحياةُ، أخيرا، بالرحيلِ.

لقد عاد، إذن، إلى شقتِه فجرا، وكان جلوسُه مع هؤلاء الأصدقاءِ مفيدا له على نحوٍ من الأنحاءِ وبطريقةٍ من الطرقِ؛ إن الإنسانَ مهما علا به الشأنُ أو دنا، فهو لا يستطيعُ أن يستغنيَ عن الناسِ! وما مرت ساعةٌ حتى كان قد نام.

كانَ الموعدُ عصرَ الغدِّ، ولقد مرَّ الموعدُ بسلامٍ، ولا حاجةَ لنا بذكرِ تفاصيلَ طبيةٍ.

الفصلُ الرابعُ

ولكن قبلَ أن نعودَ إلى القصيم يجبُ علينا، كما كنا قد أكدنا في مطلعِ هذه القصةِ، أن نُعَرِّجَ على حدثٍ هامٍ حدثَ اليومَ التالي: لقد وقعتْ في الرياض واقعةٌ غريبةٌ في نوعِها، فريدةٌ في شكلِها، وكان محمد طرفَها الأولَ، وصديقتُه الهنوفُ طرفَها الثاني، *نسينا أن نقولَ لكم أن لمحمد صديقةً؛ لقد تمكن من أن يتعرفَ فتاةً مع كلِّ تلك الظروفِ التي ألمَّتْ به،* ومع الطرفين الأولين آخرون سيجيء ذكرُهم لاحقا، كانوا هم الطرفَ الثالثَ.

والقصةُ كالتالي: إن لمحمد صديقةً هي الهنوفُ، هي من أغمضِ الكائناتِ الحيةِ على وجهِ الأرضِ، تكادُ غرابتُها أن تذهبَ بكلِّ ما دونِها؛ ومع معرفتِه بها منذُ ثلاثِ سنواتٍ تقريبا، إلا أنه لا يكادُ يعرفُ عنها شيئا: ما عائلتُها؟ لا يعرفُ. من هو والدُها؟ لا نعلمْ. لماذا يعرفان بعضَهما؟ غيرُ معلومٍ. لماذا لمَّا تزل باقيةً معه؟ إننا وهو نجهلُ ذلك. لا يعرفُ عنها إلا أن اسمَها الهنوفُ، ويعرفُ شكلَها بطبيعةِ الحالِ، ويعرفُ أنها تعملُ بالجهةِ (س. ب.) والحقُّ أنه كان يستطيعُ، إذا بذلَ أقصى جهودِه، أن يعرفَ كلَّ شيءٍ عنها، لكنه لم يشأْ ذلك طالما أنها لم تسمحْ له. لقد كانت الهنوفُ، أحيانا، امرأةً منطقيةً وواضحةً في نهايةِ المطافِ، ولئن لم تذكرْ له شيئا حولَ حياتِها الخاصةِ فما هذا إلا لأنها كانت لا تريدُ، لا لشيءٍ آخرَ. وزبدةُ القصةِ تبدأُ حينما طرحتْ عليه تلك الفكرةَ الجديدةَ التي أثرت فيه تأثيرا استمرَّ في حياةِ صديقِنا محمد إلى اليومِ، وتأخذُ رأيَه بها، ولكنها لم تكن قد قالت له فكرتَها في المكالمةِ، بل أجّلَتْها إلى وقتٍ آخرَ، وعقدتْ معه موعدا يومَ الخميسِ القادمِ في مطعمِهما المعتادِ (ف. س. أ.) الذي يقعُ في

شارعِ العليا، شارع العليا الذي يتجلى فيه الإنسانُ الرياضيُّ أيَّما تجلٍ، وفي هذا الموعدِ إنما كانت الهنوفُ تمارسُ مع محمد أغربَ طرقِ الحديثِ والكلامِ والنظراتِ الهمهماتِ والغمزاتِ وحركاتِ الأصابعِ، وأشياءَ كثيرةٍ لا طاقةَ لنا بذكرِها، *لقد كانت بحقٍّ فاتنةً عندما ترتدي أحذيتَها الفيروزيةَ اللونِ*، وقالت له، في ذلك الموعدِ، فيما قالتُه: «إنها لن تتركَه في يومٍ من الأيامِ! وإن قدرَهما قد كُتِبَ، وأنهما مكتوبان لبعضِهما بعضًا»، أما لماذا قالت له ذلك، وما الذي يضطرُها إلى قولِ ذلك، وما هو محمد بالنسبةِ إليها، وما معنى: «مكتوبين لبعضِنا»؟ فلا يعرفُ عن هذه الأمورِ شيئا. وكانت أحيانا تقولُ أشياءَ غريبةً، مثلَ قبلِ سنتين، عندما قالت له: «سنتزوجُ، هل طبعتَ كروتَ الزفافِ؟» وكانت توصيه بأشياءَ غريبةً مثل أن تقولَ له بين حينٍ وآخرَ: «خذ هذا المبلغَ واشترْ به بطاقةَ سوا، وإذا صرنا في منتصفِ الليلِ، اكشطْ الرقمَ وأرسلْه لي»، أما لماذا لم تكنْ تشتري بنفسِها البطاقةَ، ولماذا منتصفَ الليلِ؟ فلا يدري. وقد عبّرَ لها مرةً عن سرورِه بأنها تستخدمُه لتنفيذِ أغراضها، ولكن هذا لم يحركْ ساكنا فيها. *إنها مشغولة!* ولكن حينما تشعرُ أحيانا أنها تضغطُ عليه أو تحرجُه، تقولُ له كلاما تعتقدُ أنه رائعٌ، وهو في حقيقةِ الأمرِ رائعٌ، مثلُ: «يا حبيبي»، *ولقد كانت تنطقُ كلمةَ «يا حبيبي» كما تنطقُ ألو والسلامُ عليكم*، ولئن كان محمد يسعدُ كثيرا بهذه الكلماتِ، فما كانت سعادتُه بها إلا لأن الهنوفَ خَطَرَ على بالِها أن تقولَها له، لا لأنها كانت كلماتٍ رائعةً فعلا. ولقد كان كلامُها هذا أمرا كبيرا ومهما. أعودُ وأقول إن في ذلك اليومِ، أي في الموعدِ الذي تمَّ في المطعمِ، قررتِ الهنوفُ أن تطرحَ عليه ما أسمته (بالفكرةِ الجديدةِ) وتفاتحَه بها وتقولَ له

عن «صديقِها الجديدِ هيثم» الذي كان سببا من ضمنِ الأسبابِ التي زادت الهنوفَ غموضا وغرابةً. أقولُ لقد قررت أن تخبرَه عن صديقِها الجديدَ الذي يعملُ معها في نفسِ مكانِ عملِها، وهو «هيثم»، الذي لا يعلمُ إلا اللّهَ من أين خرجَ: هل هم أعداء لمحمد كلّفوه بمهمةٍ تخريبِ الحياةِ عليه؟ أم أن الحياةَ تستردُّ ديونَها منه؟ إن للحياةً معيارا لا تستخدمُه، لكنها إذا استخدمتَه استخدمتَه كما يجب. إن محمدا سأل نفسَه: ..أم هو كفارةُ ذنوبٍ؟ لا يعلمُ. المهمُّ أنه كان يجبُ عليه، بدءًا من ذلك اليومِ، أن يتعاملَ مع هيثم هذا على أنه شخصٌ حقيقيٌّ له وجودُه الواقعيُّ، ويتعاملَ معه على أنه منافسٌ من المنافسين؛ أليس هو موجودا واقعا على أيةِ حالٍ؟ ولكن لنعدْ إلى هيثم: لقد كان هيثمُ يحوزُ على كلِّ الصفاتِ النموذجيةِ للرجلِ المثاليِّ في جمهوريةِ أفلاطون: طويلَ القامةِ مسرفَها، مرنَ الجسمِ، وهو يحوزُ على الصفاتِ التي تحلمُ بها كلُّ فتاةٍ ناضجةٍ تهتمُّ بالكمالِ، لا بالخلودِ؛ إن صحةَ البدنِ هي هاجسُ الشعوبِ وسببُ قيامِ الحضاراتِ وزوالُها، وأن اليونانَ تلاشت لأنَّ سكانَها اعتزلوا حلبةَ المصارعةِ والرياضةَ التي كانت تغذي أجسامَهم وتقويها، ولم تغنِ عنهم فلسفتُهم وعلومُهم العقليةُ لما أهملوا صحتَهم؛ إن الصحةَ أهمُّ من العلومِ التطبيقيةِ! ولم يتبقَ لهيثم إلا أن يمتطيَ ظهرَ جوادٍ حتى يُصنّفَ واحدا ضمنَ أبناءِ عائلاتِ الارستقراطيةِ ذاتِ الطباعِ الفروسيةِ. ومن سوءِ حظِّ محمد أن هيثمَ، *بسببِ ظرفٍ من الظروفِ الذي ستتعرفُ عليه لاحقا*، قرر أن تكونَ بينه والهنوف صلاتٌ خاصةٌ ما انفكت تتزايدُ مع مرورِ الوقتِ؛ لقد صار بطريقةٍ من الطرقِ مديرَها في العملِ؛ ذلك ما قيل لنا على أيةِ حالِ. وهذا العملُ أصبحَ يقتضي منهما

أن يكونا معا لأكثر من خمسِ ساعاتٍ باليومِ. وفي كثرةِ هذه الساعاتِ، وجد هيثمُ نفسَه مجبرا على أن يعترفَ للهنوف ببضعِ كلماتٍ خاصةٍ لا تمتُّ للعملِ بصلةِ! إنني أكررُ أن كلَّ هذه المعلوماتِ قد قيلت لنا ولا نعلمُ عن صحتِها شيئا. ولكن هل هذه هي المشكلةُ حقا التي من أجلِها إنما بدأنا بكتابةِ هذه الصفحاتِ؟ لا، ليست هذه المشكلةَ. إن المشكلةَ أكبرُ، وإذا أردنا أن نطرحَ المشكلةَ الحقيقيةَ فسنقولُ إن الهنوفَ كان قد سَمح لها مزاجُها وضميرُها أن تجمعَ محمد وهيثم جميعا، *تلك هي الفكرةُ الجديدةُ*، وهذا الاجتماعُ كان مقدرا له أن يحدثَ بعدَ اعترافِ هيثم لها بأسبوعين أو ثلاثة أو أربعةٍ، وكانت الهنوفُ قد عَقَدَتْ هذا المجتمعَ بينهما رغبةً منها بإزالةِ كلِّ ما من شأنِه أن يعكرَ الصفوَ، ورغبةً منها بتوضيحِ أمورِ علاقتِها بكلِّ واحدٍ منهما، للآخرِ، ولقد قيل إنها عرفتهما ببعضِهما؛ لأنها كانت تعلمُ أنها تريدُ مساعدتَهما لاحقا...، وأن تزيلَ كلَّ ما من شانِه أن يضيفَ مزيدا من سوءِ الفهمِ. *لقد كان واضحا أن هذا الهيثم سيبقى طويلا*، وهذا الموعدُ بطبيعةِ الحالِ هو موعدٌ من ضمنِ المواعيدِ، لا يختلفُ عنها في شيءٍ إلا أنه ثلاثيُّ الأطرافِ، ولكن ماذا عسانا قائلين عنه أيضا أكثر مما قلنا؟ لقد كانت ليلةُ جمعةٍ، والموعدُ كان مضروبا في السابعةِ والنصفِ مساءً، وكان محمد قد وصل أولا في السابعةِ، بعد أن خرج من شقتِه في السادسةِ، يعني أن زحمةَ السيرِ أبقتْه على متنِ الطريقِ ساعةً بطولِها، ولكنه كان، على الأقلِّ، أفضلَ من هيثم الذي جاء بعدَه بعشرِ دقائق، وكانا جميعا أفضلَ من الهنوف؛ ذلك أنها لم يطرِ على بالِها أن تجئَ إلا في الثامنةِ. وقبلَ مجيءِ الهنوف، تمكّن محمد من أن يجعلَ هيثمَ البادئَ وصاحبَ

المبادرةِ بالكلامِ؛ ذلك أنه كان عليه *ككلِّ المواطنين السعوديين* أقولُ إنه كان عليه أن يكونَ ثقيلا *أكثرَ مما يجبُ*! أمّا كيف عرف محمد أنه هو هيثم، فكان هذا أمرا يبلغُ من السهولةِ ما جعله يتعرفُ إليه في أولِ ثانيةٍ: لقد كان مختلفا عن البقيةِ، أما كيف تعرّف هيثمُ عليه، فلست أدري!

ثم بدأ هيثمُ بالكلامِ، فقال:

- **إذن أنت هو نفسُه؟**
- **من هو الذي هو نفسُه؟**
- **أنت صديقُ الهنوف!؟**
- **ها!! إنه أنا هو. أأنت هيثم إذن؟ مرحبا بك.**

قال كذلك ثم حيّاه تحيةً أصحابٍ موغلين في القدمِ! وبعد التحيةِ، ذهبا إلى المكانِ الذي كان محجوزا لهما، وجلسا وطلبا ما يجبُ أن يُطلبَ في مواقفَ كهذه المواقفِ في عُرْفِ روَّادِ المطاعمِ، ثم تحدثا قليلا: لقد تكلما مثلا عن ريال مدريد وعن اقتصادِ السعوديةِ وعن «المرأةِ» طبعا، ثم عن قطاعِ المصارفِ ثم عن الجبيرِ وزيرِ الخارجيةِ وعن قرارات ترمب الأخيرةِ والاتفاقِ النوويِّ الإيرانيِّ، وتكلما عن مخالفةِ ابنِ عثيمين المذهبَ أحيانا، ثم انتهيا إلى أن محمدَ عبده قد آن له أن يعتزلَ المسرحَ؛ لأنه ضلَّ الطريقَ، ولكن، مع هذه المواضيعِ، كلِّها، بتباينِها الشديدِ، بدا لهما أنه لا يوجدُ مواضيعُ كثيرةٌ! لكن هذا كان قبل أن يطرحَ هيثمُ فكرةَ ما أسماها *بالتصرفاتِ الغريبةِ التي يتصرفُها المجتمعِ الجائع*، وصديقُنا محمد في الحقيقةِ لا يحبُّ الأحاديثَ في مواضيعَ كهذه؛ ذلك أنها مجلبةٌ للثرثرةِ

الواسعةِ التي لا تفضي إلى كبيرِ فائدةٍ، ثم دع عنك الجوعَ الذي وصف به المجتمعَ، فقال له إنه لا يعرفُ شيئا عن المجتمعاتِ، دع عنك الجائعةَ، وإنه لآسفٌ لجهلِه أشدَّ الأسفِ، لكن هيثمَ قاطع محمدا، وقال:

- لا بأسَ، إن الأمرَ واضحٌ ولا يحتاجُ إلى من يشيرُ إليه بيدٍ...، *وهو يقصدُ بهذا الأمرِ «المجتمعَ»* طبعا...، اسمع لقد كنتُ في حفلةِ زفافٍ كبيرةٍ قبل أسبوعين، كان يحضرُها شخصياتٌ معروفةٌ لها مكانتُها وحجمُها داخلَ النسيجِ البرجوازي، مُلاكِ رؤوسِ الأموالِ، وعندما جاءَ وقتُ تناولِ الطعامِ، قام شَيْخٌ من عندِكم من القصيم...، (لقد عرفَ أن محمد من القصيم من لهجتِه، ولا نحسبُ أن الهنوف قد أخبرته)، وأَغلقَ بابَ صالةِ الطعامِ بالسلاسلِ، ووقفَ مهددا وموعدا ومزبدا، حتى إن بعضَ أشخاصٍ قالوا إنهم رأوا معه حربةً، ولكن لمّا لَمْ يَسْنِدْ أحَدٌ مَتْنَ هذه الروايةِ، فهي ضعيفةٌ! ولقد ضجَّ الناسُ وبدأوا يتهامسون، وكثرَ الهرجُ والمرجُ، وسُمِعَ أبو العروس يقول متضايقا ممسكا بطرفي بشته التي كانت تعيقُه عن السَّيْرِ وتدبيرِ أمورِ الحفلِ: «هييه!!»، ولكن تعال، من أين جاء بالسلاسلِ؟ لا ندري! هل كان يخفيها داخلَ ملابسِه؟ لا ندري! إن السلاسلَ وحدَها لهي التي تثيرُ التساؤلَ في هذا الموقفِ كلِّه!...، ولم يكنْ ثمةَ حراس، وما الداعي إلى حراسٍ؟ إننا في بلدِ قانون لا في غابةٍ! وسُئِل الشيخُ عن سببِ هذه البلبلةِ كلِّها، وماذا يريدُ، وما هي مطالبُه؟ فأجاب الشيخُ بأن ما تضمُّه صالةُ الطعامِ إسرافٌ وأن (القاعدةَ الأخلاقية)، و (القاعدةَ الفقهيةَ) تقتضيان منه أن يتصرّفَ! إذن نحن

عندنا مخالفتان؛ مخالفةُ الفقهِ أولا، ثم مخالفةُ الأخلاقِ! وأخيرا عرفنا السببَ: لقد كان يوجدُ في قائمةِ الطعامِ صنفٌ كان مطلوبا بالاسمِ من أستراليا طلبا مُعَّيَنًا لهذا الزفافِ بعينِه، وكان سعرُه يتجاوزُ المليونَ ريالٍ، وهو «لحمُ ثعبانِ البحرِ»!...، ولكن اسمعْ: لقد وهبَ السعوديون قوى ومواهبَ عظمى: إننا نستطيعُ أن نحكمَ في كلِّ مناحي الحياةِ، ونبتَّ في جميعِ قضايا الوجودِ، ونقطعَ برأيٍ في غالبِ الشؤونِ، وعندما يكونُ الأمرُ متعلّقا بذاتِنا وبداخلِنا وبأخلاقِنا نقفُ عاجزين عن تغييرِ أدنى شيءٍ. ألا فاعلمْ أن ما من خيرٍ وقع أو سيقعُ إلا سيكونُ سببُه العزيمةَ، وما من شرٍّ يقعُ إلا بسببِ اللهوِ والأملِ. التغييرُ يجيءُ من داخلِ النفسِ، والتسويفُ يجيءُ من الخارجِ.

أكان هيثمُ قد فرَغ للتوِّ من قراءةِ كتابٍ، أم كان هذا أسلوبَه الطبيعيَّ. ذاك هو السؤالُ الذي ما انفكَّ يسألُه محمد، في ذلك الوقتِ. لقد استمرَّ هيثمُ بالحديثِ قرابةَ ثلثِ الساعةِ وتحدث في مواضيعَ كثيرةٍ جدا، حتى لقد تحدث عن أزمةِ الإسكانِ، إلى أن شرّفتْ المكانَ الهنوفُ.

الفصلُ الخامسُ

نَعَم، لقد وصلت: وجاءت من أقصى المدينةِ تسعى. أما لماذا تأخرتْ؟ فلقد كان لديها أعمال يجبُ أن تنتهيَ منها. وأما ما هذه «الأعمالُ» التي دائما كان على الهنوف أن تقضيَها وأن تنتهيَ منها؟ فلا نعلمُ من هذه الأعمالِ شيئا إلا أنها أعمالٌ سريةٌ، ولكن ما محتوى هذهِ الأعمالِ، وأين

تُقضى، وكيف تُقضى، وماذا يتطلبُ قضاؤها، فذلك ما لم نُحِطْ به خُبْرا، والهنوفُ نفسُها لم يدرْ في بالِها يوما أن تقولَ له عن طبيعةِ هذه الأعمالِ. ولقد جاءت متبخترةً، *ولا شكَّ أن أتعابا كثيرةً قد واجهتْها خلالَ هذا اليومِ*، لكنها استطاعت، مع ذلك، أن تتبخترَ مع ما بدا على وجهِها من المشقّةِ والشحوبِ؛ وتلك ميزةُ في النساءِ؛ والحقُّ أن الناسَ لا يتبخترون ولا يتباهون ولا يتغطرسون إلا في المواقفِ التي تتطلبُ عدمُ البخترةِ والمباهاةِ والغطرسةِ وهذا سلوكٌ انسانيٌّ معروفٌ، يفرقُ بين الإنسانِ والمخلوقاتِ الحيةِ. والرائي الذي يرى الهنوفَ تدخلُ دخولا كهذا، مع ما بها من مشقّةٍ وشحوبٍ كما قلنا، يدركُ أنها امرأةٌ لا تحفلُ بأحدٍ، ولا يهمُّها شيءٌ، وقد يقولُ عنها أحدٌ من الذين كانوا في المطعمِ إنها فاسدةٌ عطفا على الظروفِ التي صاحبتْ مجيئَها؛ ذلك أن دخولَها أحدثَ جلبةً: لقد كان دخولُها إلى المنطقةِ التي يصطفُّ بها الناسُ حولَ طاولاتِهم خرافيا أحدثَ جلبةً فعلا! وما إن جلستِ الْهنوف معهما حتى أدركَتْ أن الهدفَ التي إنما جمعتْهما من أجلِه قد تحققَ بالفعلِ، وهو التعارفُ، وحينما أيقنتْ من أنهما أصبحا «صديقين»، شُوهِد على وجهِها علاماتُ رضىً، ثم خرجتْ دون أن تنبسَ بحرفٍ واحدٍ، ولمّا يمضِ على دخولِها ثلاثُ دقائق.

ومع ذلك، ومع أنها لم تتفضلْ عليهما ولو بكلمةٍ، إلا أنهما قرّرا، محمد وهيثم، أن يبقيا قليلا فلا يتبعاها خارجين. لقد أصبحا فعلا، كما تظنُّ الهنوفُ، صديقين! ولكن كيف أصبحا كذلك؟ لا أعلمُ! أهي مباركةٌ الهنوف؟ لا أعلمُ. والحقُّ أن محمد نفسَه كان لا يحبُّ كثيرا أن يتعرّفَ إلى أناسٍ جددٍ، ومع ذلك فقد راقَ له هذا الهيثمُ إلى حدٍّ بسيطٍ! وَطَفِقْا

يتحدثان عن الرياضةِ، ذلك أنهما —مع الودِّ الذي بينهما– لم يجدا ما يتحدثان عنه! وما إن أشارت عقاربُ الساعةِ إلى العاشرةِ رأيا أنه لا بدَّ أن يقوما ويخرجا من المطعمِ.

سأل محمد هيثم:

- **إلى أين تريدُ أن نمضي؟**
- **كلٌّ إلى غايتِه.**

قال ذلك، ثم أردفَ:

- **ولكن تعال. اسمعْ: أنت إنسانٌ خلوقٌ ويظهرُ على وجهِك معالمُ الطيبةِ، (أَفعلا تظهرُ على وجهِ محمد معالمُ طيبةٍ؟)، ولذلك سأقولُ لك ما يلي: إن صديقتي الهنوف تعاني الآن مشاكلَ صعبةً، والسؤالُ عن هذه المشاكلِ ومحاولةُ معرفتِها لن يفيدَ أحدا من قريبٍ ولا من بعيدٍ؛ لذلك أودُّ أن أطرحَ عليك اقتراحا هو أن تبتعدَ عنها قليلا، أو على الأقلِّ أن لا تضيقَ عليها كثيرا وتتصلَ بها وتسألَ عن حالِها؛ إن النساءَ عندما يرغبن بالوحدةِ لا يمكنُ لأيِّ أحدٍ مهما وصل من درجاتِ الحبِّ أن ينزعَ عنهن لباسَ وحدتِهن، إن العزلةَ أمرٌ مقدسٌ عندَ المرأةِ، وهو، عندهن، كالخُبثِ! وعندما أقولُ ذلك لك لا أتدخّلُ في شأنِ أحدٍ؛ إنما أنا رسولٌ ناصحٌ مبينٌ لك فقط، لا أكثرُ من ذلك ولا أقلُّ.**
- **طيب، قولٌ سديدٌ، ولكن هل ستَّتَبعُ النصيحةَ، أنت نفسُك يا من ألقيتَها عليّ؟**

قال محمد كذلك بوجهٍ مستهزئٍ وساخرٍ وحانقٍ قليلا.

- **هههه! إني أفهمُ الشعورَ الذي يراودُك الآن. أنت تعتقدُ أنني أريدُ أن أبعدَك عن الهنوف، ولكن اعلمْ أن هذا ليس من حقي: ولقد بيّنتْ لي الهنوف هذا بصراحةٍ ووضوحٍ. ومخالفةُ أوامرها ليس من نواياي.**
- **ماذا قالت لك؟**
- **قالت ألّا أحاولَ أن أفرضَ عليك أمورا لم تسمحْ بها هي.**
- **طيب، أمرٌ حسنٌ، ولكني أعيدُ السؤالَ عليك يا هيثمُ مرةً أخرى، ذلك أنك لم تجبْ عليه: هل ستتبعُ النصيحةَ، أنت نفسُك يا من ألقيتها عليّ؟**
- **...إن المصلحةَ العامةَ تقتضي منّي البقاءَ معها في هذا التوقيتِ.**
- **ومن هم الذين تعمُّهم هذه *المصلحةُ العامةُ*؟**
- **إن لك لأسئلةً غريبةً! ولكن أوكي، اسمع: إن الأمرَ معقّدٌ قليلا، نعم، إن به تعقيدا؛ ذلك أنّك لم تطّلعْ على كافّةِ الشؤونِ المتعلقةِ بظروفِ الهنوف: إن ظروفا معقّدةً تحيطُ بها، ولن تفهمَها في يومٍ من الأيّامِ.**
- **ولماذا أنت موقنٌ كل هذا الإيقانِ أنني لن أفهمَها؟**
- **أولا، بسببِ أنك لن يسمحَ لك أحدٌ أن تصلَ إلى تفاصيلِها، ولذلك لن تفهمَها! ثانيا: بسببِ أن الظرفَ القائمَ ظرفٌ متعلّقٌ بمالٍ، فإذا كان معك مالٌ فحيّاك الله، وإن لم يكن معك مالٌ فالسلامُ عليكم؛ إن المالَ أصلُ كل الشرورِ والأشياءِ، هذا إن لم يكن هو الشرورَ والأشياءَ ذاتَها.**

- إذن فلقد وصلت معك الأمورُ إلى أن تتجرأَ عليّ وتقولَ لي: «السلامُ عليكم»؟، ألا فاسمع: ما أنت إلا غنمةٌ من الغنمِ، هذا ما أنت هو حرفيا. ثم إن كانت المشكلةُ مشكلةَ مالٍ، فهي لن تُحلَّ إلا بمالٍ، هل الأمر كذلك؟
- نعم هو كذلك. لن تُحلَّ المشكلةُ إلا بالمالِ، لا غيرِه.
- وأنت هو الحلُّ إذن، صحيح؟ أنت الذي جِيءَ به كي يحلَّ المشكلةَ؟ أنت الموردُ الماليُّ المستخْدَمُ؟
- ليس الأمرُ كما تعتقدُ. إننـ..
- لا يوجدُ في الأمرِ ظنٌّ واعتقادٌ: ليس الأمرُ أمرَ ابنِ تيميةَ! هي مسألةٌ واضحةٌ لا تحتملُ الغيبَ والظنَّ: إنكما تتعاملان مع مشكلةٍ ماليةٍ، فإما أن تكونَ أنت المشكلةُ: أي أنت من يجبُ أن يُدفعَ إليه المالُ، أو أن تكونَ أنت الموردَ الذي سَيَدفعُ المالَ، لا خيارَ ثالث. وإلا لِمَ عساك تُحسبُ طرفا من أطرافِ في هذه المشكلةِ؟

قال هيثم بارتباكٍ خفيفٍ:

- وما يدريك؟ قد أكونُ وسيطا بين الهنوف وصاحبِ المالِ؟

قال محمد باستغرابٍ وتراجعٍ:

- هل تكونُ كذلك فعلا؟
- نعم! قد أكونُ، ولـمَ لا أكونُ؟

قال محمد وقد حسّن من لهجتِه:

- طيب قل لي وفهّمني، قد أكونُ قادرا على المساعدةِ. لا تستخفوا بي. لقد شاءتِ الصدفةُ أن يكونَ معي بعضُ ألوفٍ.
- كم ألفا تملك؟
- معي في البنكِ عشرون ألف.
- عشرون؟ أوه! يا لبراءتك. إنك مسكينٌ، اذهب إلى بيتكِم، فَنَمْ، وانس أني قلت لك شيئا، أما فيما يتعلقُ بالهنوف، فإذا أردتَ أن تسكنَ معها في بيتِها فافعلْ ما شئتَ، فلا دخلَ لي بكما بعدَ اليومِ.
- منذُ البدايةِ لم يكن لك دخلٌ بيننا، ولكن قل لي أرجوك، إنني أتضرّعُ إليك، ما هذه المشكلةُ الماليةُ؟
- إني أتفهّمُ وضعَك، ثق بي، ولكن هل لي في هذا الأمرِ دخلٌ فأخبرُك، أو أشركُك فيه؟ إنني مثلُك، إن يديَّ مقيدتان بقيْدٍ يا صديقي.

ثم ختمَ كلامَه قائلا:

- وداعا.

لقد كان محمد يعلمُ أو قُل كان يشكُّ بأن الهنوفَ متورطةٌ بمشكلةٍ ما من المشاكلِ: كان ذلك بسبب ما لفَّ الهنوفَ من هدوءٍ وتوهان وتفكيرٍ وخروجٍ عن النصِّ الفترةَ الأخيرةَ، وكانَ محمد يظنُّ أن هيثم يريدُ أن يستغلَّ هذا الوقتَ الصعبَ الذي تمرُّ به الهنوف، ويريدُ الانتهاءَ منه بأفضل النتائج؛ ومن هذه النتائجِ أن يتخلّصَ من محمد، ذلك أنه كان يعلمُ أن الهنوفَ لا تريدُ الابتعادَ عنه! ولكن قد تسألون أنتم: ماذا تريدُ الهنوفُ

بمحمد، ماذا تريد هذه الإنسانةُ التي تمرُّ بمشكلاتٍ كبيرةٍ، ماذا تريدُ به ومنه، وكيف يكونُ مفيدا لها؟ وما سرُّ العلاقة بينهما؟ أهما يحبان بعضا؟ سأعيدُ عليكم الإجابةَ قائلا: لست أعلمُ، ولكن العلاقةَ التي بينهما لم تكن من الحبِّ في شيءٍ، مع أنها كانت قد قالت له مرةً اذهب واطبعَ كروتَ زفافٍ، ولكنَّ الواقعَ يختلفُ. والعلاقةُ بيننا أقربُ ما تكونَ إلى الحبِّ، لكنه ليس حبّا؛ نعم هذا هو الوصفُ نفسُه، لا غيرُه. والذي يجعلُ هيثمَ حانقا هو عدمُ معرفتِه سرًّا كهذا.

وما إن ترك هيثمُ محمدا وركب سيارتَه حتى قرر صديقُنا محمد أن يتبعَه؛ لقد أراد أن يعرفَ أيَّ حيٍّ يسكنُ، لعله يعرفُ مَن هو. والمرءُ عندما يريدُ أن يعرفَ شخصا ما، ومِن أيِّ نوعٍ من العائلاتِ عائلتُه، وإلى أيِّ طبقةٍ ينتمي، فما عليه إلا أن يسألَ عن حيِّه الذي يسكنُ فيه؛ ذلك أن الأحياءَ مرادفاتٌ للحالةِ الاجتماعيةِ، على عكسِ المدنِ: فالفقراءُ يسكنون المدنَ الكبرى كالرياض والدمام، أو جدة، ولكن لا يمكنُ لهم أن يسكنوا في حيٍّ راقٍ من أحياءِ الرياض أو الدمام، وتلك، على أيِّ حالٍ، قاعدةٌ معروفةٌ أظنُّ أن ابنَ خلدون قد تكلّم بها وساق عليها بعضَ الصفحاتِ. أعودُ وأقولُ إن محمدا أراد أن يعرفَ هيثم ومن هي عائلتُه التي كان واضحا أنها عائلةٌ (بطرانةٌ) ويمكنُ التصريحُ (ببطارتها) بمجردِ رؤيةِ سيارةِ هيثم: إننا لا نعرفُ نوعَها ولا شركتَها؛ ذلك أننا لم نرَ مثلها من قبلُ.

تبعَ هيثمَ، ولقد اتّجه أولا نحوَ الجنوبِ الغربيِّ قاصدا طريقَ الملكِ فهد، وبعدما سلَكَه ومكثَ فيه قليلا، أخذ المخرجَ نحوَ الدَّائريِّ الشماليِّ، ثم نزل بعد ذلك إلى المخرجِ الذي ينقلُه إلى طريقِ التخصصيِّ: ولقد خمَّن

محمد إلى أين سيتجه: إنّه متّجهٌ نحوَ المنطقةِ التي تضمُّ حيَّ النخيلِ، وجامعةَ الملكِ سعود وما حولَها: ثم تبعه حتى وصل منزلَه، والآن إلى وصفِ المنزلِ:

(إنَّ) المنزلَ الذي تقطنُه عائلةُ هيثم، *والحقيقةُ إننا نظلمُه إذ نقول عنه أنه منزلٌ، ولكننا مع ذلك سنسميه منزلا، لا تقليلا من شأنِ هيثم، بل لأننا أقلُّ من أن نسميَ الأشياءَ بأسمائِها كما يسميها الأثرياءُ أنفسُهم*، ولكن دعونا نعودُ لخبرِ (إنَّ)، ونقولُ: إن المنزلَ الذي أوقف هيثمُ سيارتَه داخلَه كبيرٌ جدا كيفا، ومتوسطٌ كمّا: إن به أنوارا كثيرةً يشكّلُ تقاطعُها وتمازجُها لوحةً فنيةً رائعةً، جاعلةً الناسَ يتساءلون عن: «ماهيةِ الكمالِ؟»، والواجهةُ ذاتُ نقوشٍ، وتَرى التفاصيلَ الصغيرةَ الكثيرةَ أسفلَ النوافذِ وأعلاها وفي جانبِها، ولو رأى طالبُ هندسةٍ هذه التقاطعاتِ لجزَم ولحَكَمَ إن بها ملامحَ قوطيّةً؛ ولكننا لمّا لم نكن طلابَ هندسةٍ، فلن نستطيعَ الحكمَ بذلك. والواجهةُ من الحجرِ المائلِ إلى البياضِ، واختصارا للوصفِ نقولُ: مؤكدٌ أن عائلةَ هيثم قد صرفت الكثيرَ من المالِ والجهدِ على هذا المنزلِ. وتقولُ الهنوفُ إن مصممتَه أختُ هيثم، ولكن هل هذا صحيحٌ؟ لا نعلمُ!

بعدَ ذلك خرجَ محمد من حيِّ النخيلِ يكادُ يكونُ ماركسيَّ النزعةِ والتوجهِ، ولكنه لم يصلْ إلى مخرجِ الدائريِّ الشرقيِّ إلا وكان قد عاد إلى طبيعتِه السابقةِ؛ لقد فَهِم –وكان قد مرَّ بجانبِ ستاربكس، فأوحى له ستاربكسُ بهذا الفهْمِ– نقول لقد فهِمَ أن توزيعَ الثروةِ بين سكّانِ العالمِ هو شيءٌ طبيعيٌّ يجري وفقَ مسارٍ غيرِ طبيعيٍّ.!

ثم ولّى وجهَه شطْرَ شارعِ (عنيزة) الذي فيه مسكنُه المستأجرُ؛ *وقد تعمدنا أن ننزلَ سطرا جديدا من سطورِ هذه القصةِ، كي لا نضعَ منزلَ هيثم وشقةَ محمد في مربعٍ نصيٍّ واحدٍ!*، وعلى الدائريِّ الشرقيِّ أمضى خمسَ عشرةَ دقيقة مفكرا في أسوأِ السيناريوات التي من الممكنِ أنها وقعت للهنوف: هل من أحدٍ يهددها؟ أهي مطالبةٌ بمالٍ؟ وكم هو المالُ إذا كانت العشرون ألف قليلةً بالقياسِ إليه؟ ولكن قبل أن ينعطفَ إلى شارعِ عنيزة قرر قرارا مفاجئا أن يتوجهَ إلى الاستراحةِ التي زارها قبلَ أيامٍ في طرفِ الرياض الآخرِ، فقال لنفسِه: «أسلّمُ عليهم».

ولئن كان هدفُه من القدومِ إلى هنا أن يسألَ ابراهيمَ، صديقَه الذي فاجئه ليلا في شقتِه قبلَ أيامٍ، بعضَ الأسئلةِ الخاصةِ المرتبطةِ بالهنوف؛ ذلك أن له معارفَ كثيرةً، ويعرفُ حكايا كثيرةً تحدثُ في ممرَّاتِ قصورِ الأغنياءِ، وغرفِ طعامِهم، وصالاتِهم، ومديرُه في العملِ يأخذُه مرافقا ومعاونا له عندما يُدعى إلى إحدى الحفلاتِ أو المناسباتِ ذاتِ المقامِ العالي، التي يتفقُ أحيانا أن يحضرَ إليها أمراءُ أحيانا هم أحفادٌ مباشرون للملكِ عبدالعزيز.

دخل محمد إلى نفسِ الاستراحةِ التي كان قد دخلَها قبلَ أيامٍ. وكان النقاشُ ما يزالُ دائرا:

- .....إنك تزعجُنا يا صديقي! بتروكيمكالزك هذه هي نفسُها البتروكيماويات، ولكن تختلفُ اللغةُ، اعقل وأغلق فمَك! وسأقولُ لك، إن أيَّ صناعةٍ ما جديدةٍ مثلِ صناعةِ السياراتِ بالسعوديةِ، لا

تتعلقُ بتوفرِ القطعِ أو بندرتِها، بل تتعلقُ بالخبرةِ والأسلوبِ والبيعِ والعرْضِ والسوقِ...إلخ. إن التشاليحَ وأصحابَ الورشِ الذين هنا قادرون على أن يصنعوا سيارةً جديدةً، ليس صنعُ سيارةٍ هو المشكلةَ، إنما المشكلةُ كما قلت بالأسلوبِ والنجاحِ، والـ...

وصل محمد إلى هذا الحدِّ من هذه المناقشاتِ الفارغةِ، إذْ لا يبدو أن أصحابَ صديقِه ينوون أن ينتهوا من حديثِهم، فأشار إلى صديقِه أنه يريدُ أن يكلمَه بموضوعٍ، ثم خرجا إلى الخارجِ، وقال له قصتُه كاملةٌ، فقال ابراهيمُ:

- **هل تقصدُ هيثم الرو*** نفسَه؟ كيف وصلتَ إليه هذا؟ إن أباه يملكُ أربعين بالمئة –على الأقلِّ– من عقاراتِ الرياض ومنقولاتِها، وله برجٌ أو اثنان أو ثلاثةٌ، ولهم شركةٌ مدرجةٌ بسوقِ الأسهمِ، وقصرُهم في النخيلِ تحرسُه كلابٌ وجنود! هيه أأنت عالمٌ من هو الذي تتعاملُ معه(!؟) ابتعدْ عنه ولا ترتبطْ معه بشيءٍ، ولا يلمحنَّكَ مرةً أخرى! لقد رُويتْ عنه حكاياتٌ، وقيل إنه عَقَدَ على مريام فارس شهرين من الزمان ورفضتْه لاحقا بحجةِ أنه دعاها للإسلامِ! انظر إلى الإنسانِ! Gentlemen of the human race, I tell you, not a bit of it، حتى وهو في أحلكِ الظروفِ، إلا أنه ما يزالُ يمارسُ أدوارَ الوصايةِ!، وقيلَ إنه كومبارس ظهرَ في هوليود مرتين وَرُفِضَ لأسبابٍ مجهولةٍ!** ***يجبُ أن أقولَ، أنا الراوي، في هذا الموضعِ، وفي كلِّ موضعٍ من المواضعِ في هذه القصةِ، إن جميعَ الأفعالِ الماضيةِ تُبنى للمجهولِ في الأحاديثِ التي تتعلقُ بمجتمعِ مُلَّاكِ رؤوس الأموال، وإن هذه تكادُ تكونُ قاعدةً نحويةً يلتزمُ بها المتكلمون مثل ابراهيمَ.*** **يكملُ**

ابراهيم: دع عنك، إن هذا لشأنٌ كبيرٌ! ابتعدْ عنهم، وعُدْ إلى القصيم، الآن، في هذه اللحظةِ، أتضرعُ إليك، شَغّل محركَك، الآن، اتجه إلى القصيم، حرّك، تزوّد بالوق..

لقد أخافت كلماتُ إبراهيم صديقَنا محمد! وقال محمد لنفسِه: إذن هيثم ليس مديرَها بالعملِ؛ إذ لا يليقُ به هذا المنصبُ الصغيرُ! وهل كلُّ ما قِيل لي كذبٌ؟ ولكن، كيف اتصلت به؟ وما هي الظروفُ التي قادت إلى هذا الاتصالِ؟ وهل هي عالقةٌ معه، وهل هو يهدُدها، وماذا يملكُ ضدها؟ تلك أسئلةٌ كبرى كانت تدورُ في رأسِ محمد أثناء وقوفِه وحديثِه مع ابراهيم.

قال:

- تكفى يا ابراهيم، أريدُ أن أعرفَ أكثرَ، قل لي، لماذا يعرفُ هيثمُ الهنوفَ؟ كيف عرفَها؟
- أأنا أعرفُ؟ ولو عرفتُ ما بخلتُ عليك! إنك مُتْعَبٌ! عُدْ إلى القصـ..
- أرجوك، إن لك معارفَ، وتعرفُ ضباطا وألويةً، وأفرقةً وعمداءَ وأمراءَ، مؤكدٌ أن هناك طريقةً ما...
- طيب، طيب، إن لي صديقا هو ...

لم يكن محمد يملكُ الوقتَ الكافي لأن يتعرفَ هذا الصديقَ الجديدَ، فقاطعَ براهيمَ قائلا:

- أوكي فلنتوجه إليه

وركبا السيارةَ متوجهين إلى هذا الصديقِ.

إن الاستراحةَ التي كانا فيها كانت حولَ المطارِ، وهذا الصديقُ، الذي عُرِف لاحقا أنه يُلقّبُ بـ: «البايب»، ذلك أن الغليونَ لا يقارقُ فمَه ويدَه، أقولُ عنه إنما يسكنُ في السويديّ، وكان الوقتُ الساعةَ التاسعةَ، والزمانُ يسيرُ مسرعا، والروحُ كانت قد فاضت بالألمِ والحسرةِ، والزادُ قليلٌ والطريقُ طويلُ، ولكن إلى اين؟ إن الطريقَ يأخذُ خمسا وأربعين دقيقة، ولكن مع هذه الظروفِ كلِّها توجها إلى حيِّ السويدي؛ إذ لم يكن هناك حلٌّ آخرُ.

وصلا إلى بيتِ «البايب»، ولقد كان يعيشُ مع عائلتِه. لذلك لم يكن عليهما أن يريا مواسيرَ شيشةٍ موضوعةً على الجانبِ! ثم دعاهما إلى بيتِ الشعرِ الذي يقعُ بجانبِ بابِ الشارعِ، فدخلا، فجلسا، فتكلما، فقالا:

- إننا نريدُ أن نسألَك عن هيثم الو...
- هـ.. هيثم الـو... ؟!

هكذا سأل «البايبُ» ابراهيمَ، وهو يفتلُ شنبَهُ بطرَفِ ماصّة الغليونِ، وكان على وجهِه علاماتُ إنسانٍ يبحثُ، وكأنه يحاولُ أن يتذكرَ هذا الهيثم ضمنَ أسماءَ كثيرةٍ مرت عليه.

- هل تقصدُ هيثم الرفَّـ...
- لا! بالواوِ الرو***

هكذا ردَّ محمد عليه. ولكن كيف لم يعرفْ البايبُ هيثمَ الرو***، وابراهيمُ يقولُ إنه مشهورٌ ومعروفٌ في الرياض كلِّها؟ لا بد أن يكونَ مشهورا

عندَ ابراهيم، وليس كذلك عند البايب، وقد يكونُ البايبُ متخصصا بمعرفةِ الشخصياتِ الأكبرِ من هيثم الرو***.

- أهههها! تقصدُ هيثمَ الرو***؟ قل منذُ البدايةِ إنك تقصدُ الرو***.

قال ابراهيمُ:

- وماذا كنت أقولُ منذُ البدايةِ(؟!)

- ها؟ طيب يا ابراهيم، حياك اللهُ أنت وضيفَك. أما بخصوصِ هيثم الرو***، نعم صحيح، هو بهيمةٌ نعم، ذلك معروفٌ عندنا، لكنه مع ذلك عقدَ على مريام فارس، والعقدُ على مريام فارس ليس أمرا هينا! هل تستطيعُ أنت يا ابراهيم أن تعقدَ على مريام فارس؟ بل هل تستطيع أن تعقدَ على لجين الهذلول؟ لا. أما عن كونِه بهيمةً، فأستطيعُ تأكيدَ هذه المعلومةِ! لكنها تركتْهُ عندما دعاها إلى أن تُغيرَ عقيدتَها: إن العقيدةَ هي الأمل، فإذا فقدَ الإنسانُ املَه فقد نفسَه! وكان قد أعطاها قبلَ ذلك كتابَ «هدايةِ الحيارى» كهدية...، أحممم، نعم، ماذا تريدون، أقـ..قـصدُ ماذا تريدان؟

ثم تبسّمَ فظهر سنُّهُ.

قال محمد:

- إنها قصةٌ طويلةٌ...

قاطعه البايبُ مُكرِّرا:

- نعم لا شكّ، قصةٌ طويلةٌ...

فأكمل محمد:

- ولقد صادف أن هيثمَ هذا يعرف فتاةً هي صديقتي، وبينهما علاقةٌ غريبةٌ، وأريدُ أن أعرفَ عنه أكثرَ لعلي أصلُ إلى حلِّ هذه الغرابةِ.

ثم نظر البايبُ إلى محمد وأَمَالَ كفيه كأنه ينتظرُ منه أن يكملَ كلامَه، فقال محمد:

- فقط! انتهى

قال:

- أحممم، نعم، أما هيثمُ فهو من عائلةِ الرو*، ومنزلُهم يقعُ في الـ..**
- نعرفُ هذا كلَّه.
- ...إذن دعني أسألُك: ما اسمُ صديقتِك هذه؟

نظر محمد إليه باستنكارٍ واضحٍ، ثم وجّه نظرتَه شطرَ ابراهيم باستنكارٍ أيضا.

فعاد البايبُ يتكلمُ، موجها الخطابَ إلى صديقِنا محمد:

- ليس الوقتُ وقتَ كتمِ أسرارٍ يا عزيزي، إنك تريدُ معلوماتٍ، طيب، هذا واضحٌ، ساعدنا كي نساعدَك! ما اسمُ صديقتِك.
- الهنوف الـ..

قال له بترددٍ، ذلك أنه كان يجبُ عليه أن يذكرَ له اسمَها، وإلا خربَ كلُّ شيءٍ، وعادا إلى الحرفِ أِ، ولم يكونا يملكان خيارا.

- هل تقصدُ الهنوفَ الر...؟

- لا.

- هل تقصدُ الهنوفَ الز...؟

- لا.

- هل تقصدُ الهنوفَ القـ...؟

- نعم، هي ذي.

- أهاه؟ تقصدُ الهنوفَ هذه، إنكما إذن محترفان، تتعاملان مع شخصياتٍ محترفةٍ؟ هي الموظفةُ في شركةِ (س. ب.)، التخصصُ اقتصادٌ، الملكُ سعود، دفعةُ ٢٠١٤، مواليدُ كانونَ الأول ١٩٩٤، عرفتُها، معروفةٌ عندَنا، ونسميها «الثعلبَ ذا الثلاثِ أرجلٍ». منذُ شهرين فقط. قبلَ ذلك، أي قبلَ شهرين، لم نكن على معرفةٍ بها. قبلَ شهرين كانت إنسانةً، والآن هي الهنوفُ! إنها ترفسُ أبوابَ التاريخِ بقدميها. والتاريخُ إما أن يسحقَ الناسَ أو يعظّمَهم.

- معروفةٌ (عندكم)؟

- نعم، عندنا. معروفةٌ باسمِها! أما شكلُها فلا يعرفُ. لقد قيل إن لها رقبةً طويلةً! هل هذا صحيح؟...

- وهل لك أن تقولَ لنا لماذا هي معروفةٌ (عندكم)، ولماذا قد ترفسُ أبوابَ التاريخِ؟

- اسمع يا عزيزي، إنك عندما عرفتَ الهنوفَ فقد عرفت الشخصَ الخطأَ، وأنت إنسانٌ خلوقٌ ويظهرُ على وجهِك معالمُ الطيبةِ (إنه يستخدمُ نفسَ كلماتِ هيثم)، وأنصحُك بالابتعادِ عن هذا المستنقعِ.

إن صديقتَك هذه مشهورةٌ داخلَ مجالسِ ملاكِ رؤوسِ الأموالِ. سأقولُ لك قصتَها إذا أردتَ، حتى ترتاحَ: كان (ق. هـ.)، وهو شخصيةٌ من أثرى أثرياءِ الرياض، يكادُ هيثم –بعظمةِ شأنِه– أن يكونَ عنده خادما، أقول إن (ق. هـ.) هذا عرفَ عن طريقِ السنابشات، بطريقِ المصادفةِ التي تكادُ تكونُ عمدا، المدعوةَ صديقتَك: «الثعلبَ ذا الثلاثِ أرجلٍ»، وكانت صديقتُك هذه تجهلُ من هو، ولعلها حسبته رجلا مغفلا صادفَ أن كان غنيا، ومهما يكن من أمرٍ فقد حدثت بينهما محادثاتٌ طويلةٌ، وتبادلا الصورَ؛ ذلك أن صورةَ الشخصِ أهمُّ من الشخصِ نفسِه إذا كان الأمرُ يتعلقُ بعلاقاتِ بالسوشلميديا: إن البناتِ اللواتي يتبعنَ مريمَ يقلن دائما: «إن صورةَ الإنسانِ لا تهمُّنا بقدرِ عقلِه وأفكارِه»!، ألا فاعلم إنهن يكذبن؛ إن العقلَ والدماغَ أمران رائعان، أسلِّمُ لك بذلك، لكنك عندما تحادثُ الشخصَ فأنت تقابلُ وجهَه لا تقابلُ أفكارَه: إن أفكارَه غيرُ مرئية! هي لن تعيشَ مع الأرسطو الصغيرِ الذي في داخلِك، بل ستعيش مع وجهِك وبدنِك؛ فإذا اتفقنا على هذا الكلامِ، تصبحُ مقولةُ: «إن الصورةَ لا تهمُّنا بقدرِ...إلخ» محضَ هراءٍ! **Lets be realistic** وأتابعُ وأقولُ: إلى أن نجحتِ الْهنوفُ بأن تأخذَ منه نصفَ مليون من أجلِ أن تشتريَ سلسالٍ من السلسالاتِ، مقابل ماذا؟ مقابلُ أن تخرجَ معه في شقتِه! لقد طلبت منه المالَ كاش لأسبابٍ لا نعرفُها، وسلّمه لها فعلا، والذي سلّم لها المالَ هيثمُ، ولم تكن قد عرفت هيثمَ بعد، ولم يكن قد بدأ عملَه معها. ولكن ماذا فعلت هذه

«الثعلبُ ذو الثلاثِ أرجلٍ»، بعد أن أخذتِ المالَ؟ لكما أن تحزرا...، نعم أصبتما، لقد خدعته وكذبت عليه و حظرته من السناب! لقد ظنت أن الحياةَ تمكن السيطرةُ عليها بالبلوك! لكن هذا وهمٌ: إن الحياةَ عصيةٌ على السيطرةِ، الحياةُ لا يمكن خنقُها+. إن النساءَ مليئاتٌ بالوهمِ والفجورِ ويجبُ أن تُقلصَ حرياتُهنَّ، تلك حقيقةٌ تُشاهد: انظر، افركْ رقبتَك قليلا نحوَ الشمالِ أو اليمينِ، ماذا ترى؟ ترى المرأةَ تريدُ أن تقودَ! نعم، تريدُ أن تضعَ ناقلَ السرعةِ على الحرف D، وتريدُ أن تتجهَ إلى ما شاء لها هواها أن تتجهَ إليه، وتريدُ أن تذهبَ إلى الأسواقِ! ولكن كيف ستقودُ المرأةُ وهي ترتدي الكعبَ؟ إن هذا السؤالَ مطروحٌ على طاولةِ المناقشةِ! اصنعوا له هاشتاقا إذا شئتم!...، ثم إن حقوقَ الإنسانِ تقولُ: «لكلِّ إنسانٍ حقُّ التمتعِ بجميعِ الحقوقِ والحرياتِ المذكورةِ في إلخ إلخ...»، ولكن هل المرأةُ إنسانٌ؟ لا أتكلمُ عن المرأةِ السعوديةِ، بل عن المرأةِ العالميةِ؟ is woman a human being؟ إن المرأةَ ترتدي كعوبا فتطولُ قامتُها ثم تختفي قامتُها الحقيقيةُ، وتضعُ أصباغا فيختفي لونُها الحقيقيُّ، وتضعُ معادنَ في إذنِها، ونحاسا في أنفِها، وذهبا في سرّتِها، ورموشا في عينيها، وحاجبين جديدين، وكذلك عينين جديدتين، والمصانعُ تصنعُ، وهي تتغذى على الخضراواتِ فقط من أجل أن لا يصيبَ خصرَها صائبٌ من شرٍّ، ولا أدري ماذا تفعلُ بشعرِها، وتضعُ بودراتٍ خفيّةٍ في أنفِها فتصيّرُه من أنفٍ بشريٍّ من جلدٍ وعظمٍ إلى مادةٍ ما من الموادِ: أين أنتِ أيتها الإنسانة؟

والآن، بعد هذا كلِّه، أين هو الإنسانُ الذي تتكلمُ عنه الأممُ المتحدةُ؟ أنا لا أرى إنسانا، بل أرى شمعا وكحولا! وأنا لستُ ملزما بأن أكفلَ الحريةَ لموادٍ، بل ملزمٌ بكفلِها لإنسانٍ...، اسمعوا: إن المرأةَ مظلومةٌ، هذا أمرٌ متفقٌ عليه من كافةِ أحزابنا السياسيةِ بدءا من التيارِ الليبراليِّ مرورا بعبدالله الغذامي ومجتهد وانتهاءً ببدريةَ البشرِ، والمرأةُ بسببِ هذا الظلمِ عينه إنما نجدها تسخرُ طوالَ الوقتِ، أي أن الألمَ يحفزُها على السخريةِ! والألمُ موهبةٌ، وليس نوعا من أنواعِ الترفِ. والحقُّ أننا جميعا نسخرُ، لا النساءُ وحدهن! ونحن في السعوديةِ نسخرُ كي لا نموتَ ضجرا وكمدا، ونختلفُ مع الناسِ كي لا تُنسى، كي لا تصيرَ حياتُنا رتيبةً حزينةً، إننا نعبدُ الماجرياتِ، ونعبدُ أحداثَ الأكشن عبادةً من دونِ اللهِ! وتخيّلْ لو لم يكن تويتر موجودا لكان حالُنا هو نفسُه كما في التسعينات. سلامٌ عليك أيها الكائنُ الحيِّ، أيها السعوديُّ العظيمُ! Heil Saudit...، أحمم ولكن أين وصلنا، هه؟

- **لقد أعطته بلوك في السناب!**
- **نعم، بلوك. فقرر صديقُنا أن يبعثَ مساعدَه هيثم بمهمةِ «الإتيان» بهذهِ التي كذبت عليه! وفعلا أتى بها! لقد نجح صديقُنا الثريُّ بمساعدةِ الثريِّ الآخر الذي عقد على مريام فارس، لكن مريام... نقولُ لقد استطاع هيثمُ أن يصلَ إلى الهنوف، ولكنه لم يفعلْ معها شيئا إلا أنه قال لها إنه يريدُ نصفَ مليونِه زائدا معه مئةُ ألف أخرى، وإن لم تفعلْ ما يطلبُه منها فسيقومُ: بـ: «خطوتِه الأولى»، ولكن ما**

هذه الخطوةُ الأولى؟ لستُ أدري. وقِيلَ، *ها نحن نعودُ إلى المبنيِّ للمجهولِ*، وقيل لي إن الهنوفَ ما زالت تحاولُ أن تجمعَ هذه الستمئةَ ألف، هل هذا صحيحٌ؟ بما أن الهنوفَ صديقتَكم، هل صحيحٌ أنها لم تستطعْ تدبيرَ هذا المبلغَ؟

قال محمد:

– لا أعلمُ!

ثم غادر محمد مع ابراهيم، كئيبَ النفسِ، متجهمَ المزاجِ، ضائقَ الصدرِ، مكسورَ الخاطرِ. إن أولَ ما واجهَه هو هذا السؤالُ: لماذا احتفظت به الهنوفُ، جنبا إلى جنبٍ، مع هيثم مع أنها لم يمكنْ لها أن تستفيدَ منه لحلِّ مشكلتِها هذه؟ لا يعلمُ! لا يعلمُ شيئا أبدا، لا يعلمُ إلا أنها لم توفقْ في اختيارِ الأوقاتِ التي ترتكب بها أخطاءَها، بل لم توفّقْ في حياتِها كلِّها، وإن كانت قد أُتهمتْ بارتكابِ بعضِ الأخطاءِ المعينةِ، فهذه الأخطاءُ ليست أخطاءَ كبرى، إنها مجردُ خطايا عاديةٍ، غير أنها أخطاءُ ارتكبتْ في الوقتِ والموضعِ الخطإِ.

لقد بقى وحيدا داخلَ سيارتِه بعد أن نزل ابراهيم، وطفقَ يبكي لا لشيءٍ إلا لأنه لم يستطعْ أن يكونَ سعيدا هو والهنوفُ، ولم يفرحْ، وبكى لأن الناسَ مضطرون إلى أن يمتشقوا الحسامَ ويقاتلوا دائما، ومضطرون أن يقفوا مستعدين لشيءٍ مجهولٍ قد يجيءُ في أيِّ لحظةٍ ومن أيِّ اتجاهٍ، ومن أجلِ أن يصلَ الإنسانُ إلى حقيقةٍ واحدةٍ، فقط، يجبُ عليه أن يتألمَ ألف مرةٍ. وعندما يفرحُ الإنسانُ مرةً يقولُ لنفسِه: «إن هذا الفرحُ إلا مقدماتٌ لحزنٍ

أكبرَ»، ذلك أن الناسَ قد علقوا مع الحزنِ إلى الأبدِ، وبلغوا فيه مبلغا يجعلُهم لا يرتضون غيرَه.

وفي التاسعةِ من الصباحِ التالي، عاد إلى القصيم، وفي محطةِ الوقودِ، أخرجَ هاتفه، وكتبَ رسالةً إلى الهنوف:

«يبدو لي كما تبدو الشمسُ الآن في السماءِ أننا نصلُ إلى نهايةٍ أليمةٍ؛ نهايةٍ كان يجبُ أن نصلَ إليها منذُ زمانٍ بعيدٍ، ولكننا مع ذلك بقينا كلَّ هذه الفترةِ. إنك لستِ بحاجتي الآن، وثمةَ أشياءُ أكبرُ تواجهُك. ولكن ليس هذا الرجلُ ولا هذا المالُ مشكلتَكِ! إن مشكلتَك هي الحياةُ نفسُها.

قد أعودُ يوما، إذا تحسن بصري، إذا كنت أملكُ أكثرَ من عشرين ألف. ولكن يجبُ أن أقولَ قبل ذلك إن ثانيةً واحدةً معك لهي أكبرُ قيمةٍ من العمرِ كلِّه. ورُبَّ إنسانٍ يُولدُ فلا يعيشُ من عمرِه إلا لحظةً واحدةً رائعةً ثم يموتُ بعدَ ذلك، فيُغبطُ على ميتتِهِ تلك، وَيُعدُّ أسعدَ ميّتٍ بالوجودِ.

وداعا، في/إلى حياةٍ أخرى...، من محمدِ إلى الهنوف.» انتهت،،،



-4-

أَحَادِيثُ عامّةٌ بين شخصياتٍ خاصّةٍ

قِصَّةٌ قصيرةٌ

-النصُّ مُشَكَّلًا-

أَحَادِيثُ عامّةٌ بين شخصياتٍ خاصّةٍ

أيار (ماي) ٢٠١٨

@Raskolnekov

Twitter: @raskolnekov

Say At: https://Sayat.me/raskolnekov

Wordpress: https://muharrubaian.wordpress.com

Mail: muhammad.arrubaian@yahoo.com

Saudi Arabia, El-Qassim, 1st edition. May. 2018

..3rd editon. May. 2019

الاصدار الأول: آيار (مايو) ٢٠١٨

التعديل الثالث: أيار (مايو) ٢٠١٩

«*Ave Maria...*»[*]

[*] عن اللاتينية: «السلامُ عليكِ يا مريمُ»

إلى مَنْ تَكبَّدَ عناءَ أشياءَ فارغةٍ

الفصلُ الأَوَّلُ: مِن أيِّ سماءٍ زرقاءَ هَبَطْتِ؟

في أوائلِ الشهرِ الماضي، كانونَ الثاني (يناير) على ما أظنُّ، أيّامَ بدأَ الفصلُ الدراسيُّ، وقعتْ حادثةٌ عاديةٌ تكادُ تقعُ دائما، لكنّها نوعيةٌ بطريقةٍ ما، فقد قررتْ ليلى الد***، المعروفةُ بين قريناتِها في تويتر بلقبِ الـ«مطرقةِ فوقَ رؤوسِ ياسرِ الفيصلِ وزملائِه»، وهو اللقبُ الذي أطلقتْهُ عليها المغردةُ المعروفةُ الأخرى (@P678!_) التي تُسمى ذاتَ الألوانِ لكثرةِ ما تنشرُهُ من صورٍ تحتوي على مجموعة من الأشياءِ الملونةِ الكثيرةِ غيرِ المفيدةِ مثلِ تلك المرةِ عندما وضعتْ صورَ جواربَ، فقال أحدُهم من الذين لم يتسنَّ لهم أن يفهموا الطبيعةَ التي عليها البناتُ، ولم يُقَدَّرْ لهم أن يسبروا غورَ المخلوقةِ الأنثويةِ، قالَ: «أهذهِ جواربُ؟ يا ربِّ إلى أين نحن متجهون؟»، وما كان الداعي إلى تسميةِ ليلى (بالمطرقةِ) إلا لأنَّ ليلى ردّتْ مرةً على ياسرِ الفيصل بردٍّ هو التالي: «أوڤر قرف»، فقررت ذاتُ الألوانِ والجواربِ أن تسمّيَ ليلى مطرقةً، بسببِ هذا الردِّ لا بسببِ غيرِه، وقالتْ واحدةٌ: «إن دمجَ كلمةِ [قرفٍ] لَمسةٌ فنيةٌ»، وأمّا سببُ انتشارِ هذا اللقبُ بين جمهرةِ تويتر، فلمْ يكنْ لقوةِ وبيانِ اللقبِ، بل لأنَّ امرأةً ثالثةً أعادتْ تغريدَ لقبِ (المطرقةِ)، فانتشرَ. وقد أعَدتُ، بنفسي، التغريدةَ احتفاء بها كما فعلَ روَّادُ تويتر. وأما ما يُثارُ حولَ أن ليلى لمْ تستحقْ، فعلا، لقبَ المطرقةِ، وأنها ما كانت لتُعْرَفَ لولا أن المرأةَ الثالثةَ أعادتْ التغريدَ..إلخ إلخ، فمردودٌ عليه، ولكنْ ليس هنا مكانُ الردودِ، فليس من شأنِ القاصِّ أن يتطرّقَ إلى هذه المواضيعِ التافهةِ: إن السعوديين لا طاقةَ لهم بكلِّ ما هو تافهٌ؛ والحقيقة أني لستُ من كبار المعجبين بطريقة ابن خلدون في التعبير، لكنَّ

السعوديَّ، بطبيعته، إنسانٌ مهمومٌ؛ أي أنه لا ينساق إلا إلى ما هو هامٌّ أصلا...، ونقولُ: إن ليلى قررتْ أن تنفصلَ عن صديقِها، الذي يمكنُ أن نُسميَهُ، بطريقةٍ من الطرقِ، وبتأويلٍ من التأويلاتِ التي قد يقبلُها المجتمعُ، على مضضٍ، «حبيبَها»، دونَ أن نكونَ قد شذَذْنَا عن القاعدةِ أو المصطلحِ الاجتماعيِّ السعوديِّ الشبابيِّ بالتحديدِ؛ ذلك أن المجتمعَ السعو–تويتريَّ حافلٌ بمجموعةٍ مختلفةٍ من الأشياءِ الجيّدةِ والجديدةِ، وليست جيدةً فحسبْ، بل مبتكرةٌ، خارجةٌ على المألوفِ، مائلةٌ عنْهُ، ومُتسلطةٌ عليه، أشياءَ جديدةٍ تجعلُ السعوديين كلَّهُم باحثين اجتماعيين، وسايكولوجستس، أَوَلَيْسَ السعوديون باحثين اجتماعيين بالفعلِ؟ على أيِّ حالٍ، نقولُ: إنَّ المجتمعَ حافلٌ بأشياءَ ومخترعاتٍ من صنعِ الأفرادِ أنفسِهِم، لا من صنعِ أناسٍ آخرينَ: هي من صنعِ الأفرادِ ذاتِهِم، الأفرادِ الذين يستخدمون تويتر: أي أَنَّهُ إنتاجٌ محليٌّ، فهناك تجري أشياءُ لمْ يتوقعْ عبدُالعزيزِ الخضرُ، أنها ستحصلُ في يومٍ من الأيامِ، وإلا كان أخّرَ صدورَ كتابِه. إذن، نقولُ قررتْ أن تنفصلَ عنه انفصالا نهائيا، على حدِّ تعبيرِ ليلى نفسِها التي قالتْه –مُلوّحةً بسبَّابتِها– في مجلسٍ يضمُّ النخبةَ من صديقاتِها، مثلِ هندَ وراويةَ ووفاءَ، مع التحفظِ على كونِ هندَ صديقةً مفضّلةً، إذ أنها قد أظهرتْ نابيْها بخطابٍ طويلٍ في أحدِ الجلساتِ، وخرجتْ عن المسارِ العامِّ التي رسمتْهُ ليلى، وقالتْ فيما قالتْ: «إن المرأةَ لا تعدو أن تكونَ أكثرَ من سلعةٍ جنسيةٍ في المجتمعِ السعوديِّ، وكيف للمرأةِ أن تتكلمَ وهي غيرُ موجودةٍ، أصلا، في الكلامِ؟+»!! يا لجرأتِها! ترى ما هي التجاربُ التي لا بدَّ أن تكونَ المرأةُ قد مرّتْ بها كي تنتهيَ إلى هذا الرأيِ المتطرفِ؟، على أيِّ حالٍ، فمنذُ ذلك

الخطابِ، الذي سيجيءُ ذكرُه لاحقا، عرفَ العارفون وتيقّنَ الخابرون أن هندَ لمْ تعدْ تحتلُّ تلك المكانةَ التي كانتْ تحتلُّها سابقا، ولقد قالتْ وفاءُ —المعروفةُ بشدَّةِ ولائِها لليلى، وهي التي تخلفُها ليلى في القيادةِ أحيانا— حينئذٍ: «أيا هند، لقدْ تسرعتِ..»، فقالتْ هندُ، وعليها علاماتُ حنقٍ طويلٍ، يثبتُ طولَه أنه كان حنقا يمكنُ أن يعزى *إلى عوادي الدهرِ والقدرِ*: «إذا استطعنا، يا وفاءُ، أن نحدّدَ من هو الشخصُ الذي يحددُ لنا ما يجبُ وما لا يجبُ، فقد وصلنا إلى هدفِ المدنيَّةِ الذي في جمهوريةِ لا أعلمُ من...إلخ... دعي عنك المثاليَّةَ...إلخ...، ليستْ الحياةُ لوحةً داخلَ برواز...إلخ»، كلُّ ذلك حدثَ بمكتبةِ الكليَّةِ، حيثُ مهما تطاولتْ وانتشرتْ الأصداءُ فإنها لا يمكنُ أن تتجاوزَ «أغلفةَ الكتبِ»، كذلك عبرتْ ليلى مرةً، عندما قالتْ لها وفاءُ أن ما يُناقشُ هنا خطيرٌ وأنه قد يُغضبُ اناسا ما، وأنه قد يتجاوزُ «الحدَّ المسموحَ، وأنه...إلخ»، ولكن يجبُ أن نعودَ إلى الخبرِ الذي دخلنا قصتَنا به، ونقولُ: ..ولقد كان من أمرِ هذا الانفصالِ بين ليلى وحبيبِها أن يعيدَ ترتيبَ أوراقِ ليلى فيما يتعلقُ بـ: الحرياتِ، المساواةِ، المجتمعِ، الذكورِ، الرجالِ، الأولادِ، البويز **Boys**، الولايةِ، الحنابلةِ، مبس، تويتر، الفوزانَ، الإنسانيةِ، التنويرِ، البخاريِّ، عدنانَ ابراهيمَ، الدايركت، الذاتِ، الصحوةِ، قطرَ، و«المرأةِ»، و«الفمنزم»، العلاقةِ مع آدمَ وكلِّ ما تحتويهِ من تعقيداتٍ: هل توجدُ صداقةٌ بين آدم وحواء أم لا صداقةَ بينهما، هل من أملٍ في علاقةٍ بريئةٍ بين ذكرٍ وأنثى، بل هو الحبُّ وحدَه، وما رأيُ كافكا في هذه المسألةِ، وهل قال موراكامي شيئا عن ذلك....إلخ إلخ، كلُّ هذه الأشياءِ كانت تدورُ كالرَّحى في رأسِ ليلى

نتيجةَ قرارِها الذي وإن كان يعبرُ عن قوةِ المرأةِ، إلا أنه خلَّفَ أسئلةً وراءه، مثلِ ذلك السؤالِ الذي طرحتْه راويةُ أولَ مرةٍ، وهو: ما الداعي إلى حساسيةِ ليلى تجاهَ هذه الأشياءِ (أي الشؤونَ التي تتصلُ بالنساءِ والفمنزم) وهي التي لم تُعرفْ قبلَ اليومِ إلّا بأنها نسويةٌ نظريةٌ لا تخرجُ عن نطاقِ التغريدِ والكتابةِ، فما يجعلُها، اليومَ، فجأةً، نسويةً عمليةً؟ وهذا السؤالُ يمكنُ أن يجابَ عليه بأن يُقالَ إن الظرفَ الحاليّ الذي، ليست ليلى فحسبُ التي تتأثرُ به، بل المجتمعُ كلُّه، بما فيهم «الذكورُ» (وقد حَزِنَ كثيرون من أصدقائنا الذكورِ بسببِ ما اعتبروه نزوحَ الرجالِ نحوَ حقوقِ المرأةِ، وقد استشهد أحدُهم ببيت محمد بن راشد المشهور):

«هذا زمان كلّه أنعامي، والذئب جائع...إلخ»

نقولُ: إن هذا الظرفَ هو الذي أعادَ صياغةَ ليلى على ما هي عليه. أما ليلى، فتظنُّ أن فراقَها عن صديقِها ما هو إلا فراقٌ عاديٌّ كالذي يحدثُ مع العامّةِ، لا يتعلقُ بالنسويةِ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ، اللهم إن بعضا من دوافعِه كانت بسببِ «أغراضٍ فمنزميّة»، ولكنها أكدتْ ألّا يجبُ أن يُحَمَّلَ فراقُهما أكثرَ مما يحتمِلُ، وأن ذلك لو صار سيكون تأويلا غيرَ مناسبٍ، وفي غير محلِّهِ، أما راويةُ فقد تيقنت أن هذا الكلامَ موجهٌ إليها، ولكنَّ هذا لا يهمُّ على أيةِ حالٍ! فلنعد إلى سيْرِ القصة.

(مكتبةُ إحدى الجامعاتِ، الرياض، طاولةٌ حولَها نساء: ليلى، هند، وفاء، راوية، وأخرياتٌ، وجمعٌ من الفتياتِ لم نعرفهن)

– ...إنني متعجبةٌ أشدَّ العجبِ! كيف تحتاجُ فتاةٌ قويةٌ، (قالتْ راويةُ ذلك شادّةً يدَها مع كفِّها)، صلبةٌ، إلى رجلٍ، إلى شيءٍ من الكمالياتِ، ها؟

إنما قالت ذلك راويةُ لليلى ردّا على قولِها إنها ستنفصلُ عن صديقِها.

– ..إن المرأةَ، بطبيعتِها، ميّالةٌ إلى أن تُوجِدَ في حياتِها متناقضاتٍ، ثم هي ميّالةٌ، بعدَ ذلك، إلى التوفيقِ بين هذه المتناقضاتِ، وإلّا لَمَا كانت حياتُها حياةً طبيعيةً. وحتى المرأةُ النسويةُ تحتاجُ أحيانا إلى رجلٍ يؤكدُ لها نسويتَها!..هم..، فلولا معرفتُنا أن البرودةَ باردةٌ لما توصّلْنا إلى مفهومِ الحرارةِ.. ولكن هذا لن يحدثَ بحالٍ من الأحوالِ (لم تحددْ ليلى ماهيةَ هذا الشيءِ الذي لن يحدثَ).. نيفر قونا هابن! اسمعن، إن هذه واقعةٌ حقيقيةٌ نلاحظُها جميعا: إن الرجالَ، أقصدُ الذكورَ، (هكذا استدركتْ ليلى ثم رفعتْ اصبعين من كلِّ يدٍ كنايةً عن السخريةِ، كما لو أنها تشيرُ بقرني إبليس) إن الذكورَ، دونَ وعيٍ، مقتنعون أن النساءَ إنما خُلقنَ، بوعيٍ، لخدمتِهم، وأن أيَّ دورٍ خارجَ إطارِ المتعةِ والخدمةِ ليس من حقّنا، أي أن أيَّ نشاطٍ لا يتعلقُ بالمتعةِ ينفي عنا صفةَ الأنوثةِ! صحيح أنَّ فينا ميولا فطريا إلى الغنجِ، وأن تصدير الأنوثةَ والرقةَ من أعمالنا الفطرية التي ما يجبُ أن ننسلخَ عنها ما حيينا... إن اللونَ الورديَّ هو قضيتُنا الخاصةُ... نعم، نحن نساء، بل بنات، Girls، إننا نملك فاجينا، ..وهنا يأتي دورُ الثقافةِ المحليّةِ في صنعِ (اللا–وعي الذكوريِّ المحليِّ...

– «صنعِ اللا–وعي الذكوري المحلي»..

هكذا كرّرتْ إحداهن اعجابا بهذه الجملةِ وتعبيرا عن حلاوةِ اللفظِ.

– ...وهذا يجرُّنا إلى سؤالِ: «ما طبيعةُ العلاقةِ بين الأنوثةِ والمرأةِ»..

بذلك النصِّ نفسِهِ إنما تحدثتْ ليلى، فانتهتْ فاتحةً يديها للجمهورِ الحاضرِ، وكأنها تقولُ: «بماذا تردون!».

– تلك هي المسألةُ.. ذاتز ذا كوسشن.

سُمِعَتْ هذه الجملةُ من فتاةٍ ما.. أما ليلى فتكملُ خطابَها، وكأنها كانت تنتظرُ تأييدا كالذي قالته الفتاةُ الما:

– متى كانت الأنوثةُ تتعلقُ بالشكلِ؟ إن الأنوثةَ –في رأيي– أقربُ للقرارِ السياسيِّ –بولتكال ستويشن– منها لشكلٍ من أشكالِ الجسمِ والخصرِ، إن الأنوثةَ....

– .. ويت، هل تقصدين بالقرارِ السياسيِّ الأنوثةَ أو النسويةَ؟

– الفمنزم...

– طيب.

قالت أخرى:

– وماذا يعني: «بولتكال»!!.. وت دز ذات إيفن مين!

– بولتكال = سياسي..

– آي آم فاميليار وذ ذا كونسبت.. أقصدُ ما العلاقةُ؟

قالت الفتاةُ الأخرى جملتَها: « آي آم فاميليار...إلخ» بنبرةٍ إنكليزيّةٍ امريكيّةٍ لعلَّها أُقتبستْ من مسلسلِ فريندز، ولكنها مع ذلك لم تُقتبَسْ،

لأنها لو كانت قد اقتبست من فريندز لَعَلِمْ اللواتي كُنَّ يرْتدْنَ المكتبةَ ولحدثتْ جَلَبةٌ وضجّةٌ! واتفق بقيةُ الفتياتِ مع أيٍّ يكنْ المقصودُ الذي عنَتْه ليلى.

تكملُ ليلى:

– نعم..بولتك.. لماذا، إذن، والحالةُ هذه، لا يتعلمُ الذكورُ أن لنا وجودا مستقلا. ما نحن بتابعاتٍ.. إننا مستقلاتٌ! لَمْ تُوضعْ عليَّ أغلالٌ في يومٍ من الأيامِ! ألا فليعلمْ الجمعُ أن لمَّا نزلتْ حواءُ مع آدمَ، نزلتْ معه زوجةً لا خادمةً!: اسكن أنتَ وزوجُك الجنةَ...؟

لو رأيتم التأثيرَ الذي عمَّ المكانَ ساعةَ عَلِمْنَ الفتياتُ أن ليلى، مع ذلك، وركزوا على كلمةِ «مع ذلك»، أي: مع أن ليلى تملكُ مع كلِّ تلك المعارفِ والثقافاتِ ومهاراتِ النقدِ والردِّ، والتزبيدِ، هي مع ذلك تستطيعُ أن تأتيَ بشاهدةٍ قرآنيّةٍ، فعمّتِ الفرحةُ! ولكن مع ذلك، فإن أحدا لم يعلمْ المقصودَ بـ: «الحالةِ هذه» التي قيلتْ قبلَ قليلٍ، إلا أن فتاةً شاركتْ مشاركةً نوعيةً تَنُمُّ عن سبرٍ لأغوارِ الرجالِ أو الذكورِ، بل الإنسانيةِ جمعاءَ. قالتْ:

– ههه، «زوجةً..، آدمَ»؟ خادم... صحيحٌ، كودنت أجري مور، خاصةً مع تلك الآيةِ السحريةِ، أستطيعُ، أنا أيضا، أن آتيَ بآيةٍ، من نفسِ السورةِ، وأقولُ: فرجلٌ وامرأتان، Ha ha...، ومع هذا كلِّه، مع كلِّ هذا التنظيرِ، وال:«مسألةِ السياسيةِ» وال:«وجودِ المستقلِّ»، ومهما مثّلنا دورَ نوالَ السعداويِّ، فإننا نظلُّ نساءَ، إنني امرأةٌ، وأنتِ أيضا يا

من تبحلقين عينيْك فيَّ: إنك امرأةٌ، هل ستنكرين أنك سلعةٌ جنسيةٌ، إننا سلعٌ جنسيةٌ لا بنظرِ الرجالِ فحسبٌ، بل بنظرِ أنفسِنا، والفارقُ بيننا أننا نرى أنفسَنا سلعًا بغيرِ وعيٍ، وهم واعون لذلك: صدرٌ ومؤخرةٌ وعضوٌ تناسليٌّ؟ هل من طامسٍ يمكنُه طمْسَ هذه الحقيقةِ التي نستنشقُها كلَّ يومٍ في مجتمعِنا، وهل من مبضعٍ يمكنُه أن يخترقَ «جسدي» جسدي، هذا الذي أشغلَ العالَمَ، وأشغلَ علماءَ الفقهِ، فيقصَّ قناةَ فالوبي ويقصَّ كلَّ ما من شأنِه أن يجعلَني امرأةً؟ هل الكتبُ النظريةُ، يا ليلى، يا أيتها المناصرةُ لحقوقِ المرأةِ، يا أيتها الفمنست، يا أيتها المعجزةُ التي لم تَحْدُثْ، هل الكتبُ النظريةُ قادرةٌ على أن تغلبَ الحقيقةَ العَمَلِيَّةَ المنتشرةَ في المجتمعِ؟ الفتياتُ والنساءُ، في المعارضِ، وفي التجمعاتِ، وفي المنتدياتِ، الاجتماعاتِ النسويةِ، الجامعاتِ، المجالسِ، وفي تويتر: تويتر(!؟) وما أدراكن ما تويتر!، يُنظّرن.. ويقتبسن، إننا شعبٌ ذو ثقافةٍ نصيّةٍ أولًا وأخيرًا، فالدينيون يقتبسون من ابنِ تيميةَ، ونحن نقتبسُ من الذين نقتبسُ منهم، لا فرقَ بيننا إلّا باختلافِ المُقتبَسِ منْهُ: إننا لنكادُ نتعاطى علاماتِ التنصيصِ مع أنوفِنا.. والنساءُ ينظِّرن ولا يألين جهدا في هذا التنظيرِ حولَ هذه الـ: «نحن نصفُ المجتمعِ»، و: «نحن اللواتي أنجبنا النصفَ الآخرَ»، إلخ... إلخ، وَجَرْيًا على هذا المنطقِ الرائعِ، الشهيِّ، نستطيعُ، إذا نحن اتفقنا يوما ما، أن نقضيَ على جنسِ الذكورِ، فتخلو لنا الكرةُ الأرضيّةُ...، طيب؟ أليس الرجالُ –هم الآخرون– نصفَ المجتمعِ، وهم الذين أنجبوا النصفَ الآخرَ؟

ما قيمةُ أن أتميزَ بصفةٍ يمكنُ لشخصٍ آخرَ أن يُوصفَ بها أيضا؟ ثم، كيف أنجبتِ الرجلَ؟ هل أنجبتِهِ باجتهادٍ خاصٍّ منكِ بمعزلٍ عن الرجلِ؟ *وت إز ذات* (!!؟) ماذا تُرِدْنَ؟ ...، حتى ونحن نكذبُ لنرضي أنفسَنا، فإننا بطريقةٍ ما نعترفُ بالحقيقة...، ما هذه الدائرةُ اللا–نهائية التي ندورُ فيها؟ نحن نتعلمُ، ونتفوقُ، ونأتي بمعدلاتٍ ضخمةٍ، ثم نعملُ: تلك طبيبةٌ وأخرى معلمةٌ، وتلك محاميةٌ، ولكننا نعودُ من الكليةِ في نهايةِ النهارِ أو نعودُ من العملِ، نساءَ، والرجالُ يعودون رجالا، وتختفي حقيقةُ معدلاتِنا الضخمةِ، وتظهرُ حقيقةُ كونِنا بناتٌ: وإن لَأَلْفًا من نوالِ السعداويِّ لا يمكنُهن تغييرَ حقيقةً كحقيقتِنا، وماذا أفادَ تنميقُ الكلامِ وترتيبُ الجملِ؟ أَنحن شاعراتٌ أم مكافحاتٌ؟ إننا بوجهٍ عامٍّ مكتئباتٌ، نبحثُ عن عزائِنا عندَ القططِ، مدركاتٌ أننا فاشلاتٌ، ونودُّ أن نهاجرَ، ولا نملكُ المالَ أو الحظَّ! وهذه الرياضُ الكبيرةُ التي تحتضنُ المبانيَ لا تستطيعُ احتواءَنا، فمنذُ سنتين ونحن نطالبُ بسقوطِ الولايةِ، واليومَ يسقطُ كلُّ شيءٍ، يسقطُ كلُّ شيءٍ حرفيًّا: الأمراءُ يسقطون، والثوابتُ المفترضةُ تسقطُ: قيادةُ المرأةِ، السينما، قانونُ التحرّشِ، بل إن الإسلامَ نفسَه يكادُ يسقطُ: إلّا الولايةَ لم تسقطْ! لماذا؟ لمجردِ أننا طالبنا بها؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يصدرُ عن ألسنتِنا يتحولُ –بفعلِ الطبيعةِ– إلى شيءٍ هامشيٍّ! تخيلي يا ليلى، وأنتِ وسْطَ هذا البهرجِ الكبيرِ و«القضاءِ الوضعيِّ المدنيِّ»، تكتشفين أنك لستِ أكثرَ من هامشٍ لن يغيرْ شيئا في يومٍ من الأيامِ؟ ذاتس وت يو آر! إن التفاصيلَ الصغيرةَ، يا ليلى،

التي يهملُها التاريخُ، وينزعُ عنها أهميتَها، هي التي ترسمُ أشكالَ الزمن ومعالمَ الأجيال*. إننا لسنا أكثرَ من أدواتٍ جنسيةٍ، أما التفكيرُ في التحولِ من أداةٍ جنسيةٍ إلى النِكْست ليفل فخطوةٌ جامحةٌ الخيالِ...، ثم إن التنظيرَ الذي سمِعَتْهُ الفتاةُ (س) في تويتر أو غيرِه، وتكونُ بِهِ قد وصلت بسببِه إلى قمةِ الهرمِ الإنسانيِّ، لكأنها ملكةٌ حقّا، ثم تكتشفُ، فجأةً، أنها امرأةٌ، وأن ما كانت فيه لم يكن إلّا نشاطا شاذًّا بلا قيمةٍ.. نعم! إنني لا أريدُ أن تقدمن لي حلولا تستعصي على الحلِّ، أنا لا أطلبُ المستحيلَ، بل كلُّ ما أريدُهُ هو أن أنقذَ نفسي...، بل لعلّي أريدُ أن تكونَ لي نفسٌ على الأقلِّ.. ما هذا التيهُ!.. لقد فرضَ علينا الذكورُ محدداتٍ معينةً، نعم، وكأنهم عملوا لنا سحرا! لقد سحرونا...، ونحن، لجهالتِنا، وقلةِ حيلتِنا، وهوانِنا على الناسِ، نحن اللواتي قررنا وسلّمنا أن نستقرَ على هذه المحدداتِ دون أن ننقدَها نقدا داخليا: مين آر تراش..

كذلك قالتْ هندُ، بخطابٍ لاذعٍ، شديدِ اللهجةِ، عمليٍّ، متواصلَ لم تقطعْهُ الفواصلُ، خُلوّا من زخرفِ القولِ والغرورِ، لم تقاطعْهُ سوى نظراتٍ شزرةٍ، حانقةٍ، مُصدِّقةٍ، وبالطبعِ، لم تعجبْ البقيةَ، ويبدو أن حذرًا وتوجسًا سيبدآنِ بالتكوُّنِ قريبا من هذه الهندِ، المرأةِ الغريبةِ التي سمّتْهَا راويةُ مرةً: «المضطربةَ»، والحقيقةُ أن هندَ هذه تكادُ تكونُ مضطربةً فعلا، أمّا لماذا لم تستطعْ في يومٍ من الأيامِ أن تنالَ ثقةَ ليلى؟، فهو معروفٌ؛ وهو أن هندَ الوحيدةُ التي تتفوقُ على ليلى بالجمالِ، ذاتَ شعرٍ ما كان يجبُ أن يكونَ أسودَ لولا أنها سعوديةٌ؛ لقد خطَّ الوطنُ عليها خطوطَهُ. ولم تستطعْ ليلى

يوما أن تتقبلَ أن هندَ أفضلُ منها، ولم تستطعْ يوما أن تنسى حادثةَ عندما حطّت فراشةٌ حمراءُ على كتفِ هندَ! نرى ما مصدرُ تلك الرائحةِ الزكيّةِ التي كانت تنبعثُ من هند، التي كان من شأنِها أن تجعلَ الذي يشمُّها أن يفكرَ بالوجودِ والعدمِ؟ لقد كانت الفراشةُ حادثةً غريبةً وحقيقيّةً في آنٍ، ولا تحتملُ أيَّ نوعٍ من المجازِ، وإن هذا موقفٌ مليءٌ بالمعاني والسورِ، مما جعلَ ليلى تفكّرُ مِمَّا فكّرتْ، قائلةً: «لعله مكتوبٌ أننا سنحبُّها يومًا، ولكن مع ذلك، فلمَّا يأتِ هذا اليومُ بعدُ!» وكانت ثمةُ مسائلاتٍ جادةٍ تدورُ في البهوِ حولَ ما إذا كان عندَ هندَ حسابٌ في سناب أم لا، فأتفقَ كثيرات أنها لا حسابَ لديها، وأكدّتْ إحداهُنَّ إن هندَ لا تملكُ حسابا؛ أمّا لمَ لا تملك؛ فلأنه لا يوجدُ ما يستحقُّ التصويرَ، فاستدركتْ أخرى: «إلّا أظافرَها السوداءَ، ويدَها الجديرةَ بفتنةِ البناتِ ذاتِهنَّ!»، أي: لا يوجدُ ما يستحقُّ التصويرَ إلا أظافرَها! وقد أجْرَت إحداهن، اسمها مريمُ، معروفةٌ بنشرِها ردّا على الموديل روز بملفٍّ من ثلاثٍ وثلاثينَ تغريدةٍ، وهي من اللواتي يفْخَرن بكونهن مَرْجِعًا في الفاشنستات، اللواتي كثيرا ما يعرفُ عنهن قولُهن: «..وأن تلك قد دققتْ حنكَها..»، «وأخرى رفعتْ زاويتي فمِها بعمليةٍ!»، نقول إنها أجرت قواعدَ أحكامِ الفاشنستات على هندَ، فقالت: «إن سيئتَها الوحيدةَ النحافةُ»، وقد اتفق معها كثيراتٌ، وأضافت صاحبةُ الأظافرِ: «إنه قد أضعفَها الاكتئابُ، يحّول، وإذْ كانت تملك قطةً، فمؤكدٌ أنها نقلتْ العدوى إلى قطتِها، لأن القطةَ رؤيت مرةً دونَ نشاطٍ مستلقيةً عندَ قدمِ مالكتِها هند»، وإذا صحّت روايةُ الاكتئابِ، فإن الاكتئابَ هو الذي لوَّن جفنيها، فازدادت جمالا: «لكأنما نحتَها رافايلُ بمعولِهِ»، كذلك قالت ليلى

مرةً، دونَ وعيٍ، بالتفاتةٍ تعبرُ عن ثقافةٍ كبيرةٍ بعصرِ النهضةِ، وتاريخِ أوربا؛ وميكيافيلي، ذلك أن النساءَ يقدرن الجمالَ مهما يكن من أمرٍ، فردّت راويةُ على ليلى أن لا، ما هو برفايلَ؛ بل هو: «صنع الله الذي أتقن كل شيء»، نعم، إن لهندَ وجودًا خاصًّا يستدعي تلاوةَ آياتٍ قرآنيّةٍ، ما هذه الروعةُ! باركَها اللهُ. وعلى أيِّ حالٍ فإن جمالَ هند وعدمَه لا يهمُّنا، وليس ركنا مهما في القصّةِ.

- مين أر تراش..
- ترووو، ستيل، مين آر تراش.. ديل وذ إت...

هكذا رُدَّ على الخطابِ التي قالتْه الفتاةُ الجميلةُ ذاتُ القطّةِ المكتئبةِ والأظافرِ السوداءِ، هندُ، بحماسةٍ، وكأنَّ اللتين قالتا: «تروو»، أرادتا أن تعيدا إلى المجلسِ رونقَه وروحَه الرياضيةَ المرنةَ التي كانت تعمُّ قبلَ إلقاءِ هندَ خطابَها.

- ..الأفضلُ قولُ ***All men are trash***؛ لأن جملةَ ***men are trash***، توحي لذكرٍ ما أنه استثناء؛ فهي لا تبدو كتعميمٍ كاملٍ، وهذا سوءُ فهمٍ، **lets generalize about men!** أما الجملةُ الأولى فـ***all***، تعني أنهم كلهم.

كذلك قالتْ فتاةٌ أخرى ردّا على الفتاةِ أو الفتاتين اللتين قالتا: «تروو»، أما بطلتُنا فنظرت إلى هند نظرتين غريبتين، قالت عنهما راويةُ لاحقا «لقد كانتا نظرتين مليئتين بالمعاني، أما هندُ فمضطربةٌ لا شكَّ، مع أنها جميلةٌ!» يملؤهما التعجُّبُ، وكأنها بنظرتيها هاتين تلغي ما قالتْه هندُ،

ولكن هيهات إلغاؤه. جاعلةً الجميعَ يرى نظرتيها إلى هندَ، وجاعلةً الجميعَ يدركُ طبيعةَ هذه النظراتِ والمعاني التي فيهما، فمقاصدُ ليلى دائما ما تكونُ مقاصدَ غيرَ آبهةٍ بالجزئياتِ والأفرادِ، بل بالكلّياتِ والجماعاتِ فحسبُ، على قاعدة ما أثبتناه سابقاه وهو أن الإنسانَ السعوديَّ، بطبعِه، لا يميلُ إلا إلى ما هو مهمٌّ.

وهنا سُمِعَ دويٌّ:

– ...للأسفِ أن أكبرَ غلطةٍ ارتكبتها المرأةُ أنها أنجبتْ مخلوقا خدّاعا، بليدا، مين آر تراش.. ديل وذ إت، مخلوقا فاجرا، شيطان، سخيفا، لئيما، حقودا، الموصوفَ بشتى وصوفِ الخسّة والنذالةِ والفجورِ والنفاقِ: إنني بحياتي لم أرَ منافقا كالذكرِ السعوديِّ، حتى في منشستر (!؟)، الموصوفَ بالغباءِ والرجسِ والرخصِ والسوءِ والسفهِ...، وهلمَّ جرّا من هذه الوصوفِ السيئةِ...

هكذا شاركت راويةُ، الفتاةُ الشاطحةُ، التي ما هي بالنسويةِ: بل إن شائعاتٍ راجتْ في حرمِ الجامعةِ إنها لم تشاركْ في هاشتاق الولايةِ!!! ولكنَّ لها آراء معروفةً كهذا الذي قالته توا، ولها آراء في علمِ السيميولوجيا، ولها مفرداتٌ محفوظةٌ، مثلُ: «وين ما أروح ألقى قرف»، و «أتخلص من بؤسي بماسكرا»، و «لقد كنتُ فمنست قبل أن يُخْترعَ تويتر»، التي أصبحتْ كليشيه، وهي التي ردّتْ مرة على بطلتِنا، كما لم يفعلْ أحدٌ من قبلُ، (إلّا هند)، عندما قالت لها: «ألستِ أنتِ الأخرى يا ليلى فردا من ضمنِ مجتمعٍ غائصٍ بالتنظيرِ، متناسيا أهمَّ مبادئِ الحياةِ، وهو التطبيقُ؟»، وهي

الجملةُ التي منها استنتجتْ ليلى أن: «المجتمعَ غارقٌ في التنظيرِ غرقَه في مسبحٍ»..، ولمّا سؤلت راويةُ لماذا لم تشاركْ في الهاشتاق، قالت: «إنها ما كانت ترغبُ بخسارةِ الأولادِ الذين يتابعونها»، فكان العذرُ أقبحَ من الذنبِ، لكننا لا نرجّحُ الروايةَ؛ لأن شخصيةَ راويةَ لا تنسجمُ مع هذا الردِّ، فقِيل لها: «لقد بعتِ القضيةَ إذن؟»، فقالت: «أوه...، هل بلغنا من التَّرفِ مبلغا يجعلُنا أناسا أصحابَ قضيةٍ؟»...، نقولُ إنها شاركت مشاركةً مدويةً، مشاركةً كالاعتراض الذي نراه يصدرُ عن فيبي في فريندز! فأخذتْ ليلى على نفسِها أن تعيدَ تهذيبَ صديقتِها بما يتفقُ مع القضيةِ النسويةِ (*Feminist Issue*)

الفصلُ الثَّاني: وَداعًا، أيها النور...،

(منزلُ إحدى الشخصياتِ.. شخصان يتكلمان، أحدهُما اسمُه مهندُ، وهما يتناقشان في مسألةٍ يبدو أنها مسألةٌ من مسائلِ الوجودِ ذاتِ الطابعِ السعوديِّ)

- **إذن، هذا هو الأمرُ؟ قالت إننا مفترقان؟ هه؟ لا بد أننا مفترقان فعلا ولم أكنْ أعلمُ بذلك قبلَ الآن؟ ألا يحدثُ هذا؟ أن يفترقَ حبيبان دون أن يعلمَ أحدُهما بقرارِ الآخرِ؟ إنها نكتةٌ ها ها ها.**
- **نعم. بالحرفِ، ولقد سمعتُها بأذنيَّ! ولكن ما هذا؟ هل أنت جادٌ يا مهندُ؟ إن مسائلَ كهذه لا تحتملُ التلاعبَ اللفظيَّ؟ كن جادّا أرجوك: إني لا أكادُ أجزمُ في وقتٍ من الأوقاتِ أأنت جادٌ أم لا، إنه أمرٌ**

متعبٌ جدا. لا تتعبْ نفسَكَ، كن واضحًا، حتى يرتاحَ معك الناسُ لو تكلموا معك. إن البناتِ يحببن الوضوحَ أكثرُ من روابطِ الأغاني..

- **هل أنا أتلاعبُ برأيِكِ؟ أأنا أملكُ الوقتَ كي أكونَ غيرَ جادٍ؟ إنني لم أكنْ جادا في حياتي كجدّيتي اليومَ، أما هي، فنعم، لقد لمّحتْ أوّلَ أمسٍ، عمّا سمته: (بريك)، وما هو هذا البريك؟ لا أعلمُ. إنني أعلمُ معناه اللغويَّ، لكن ما معناه على أرضِ الواقعِ؟ لا أعلمُ؛ لأن لهن معجمَهُنَّ الخاصَّ...، تلك مسائلُ ما يجب الخوضُ فيها. لنتكلم عنك؟ كيف حالُك؟ هل أنت بخيرٍ؟**
- **لنتمنَّ أن أكونَ بخير.**
- **نعم لنتمنَّ، كما لو كانت لدينا خياراتٌ أخرى. هم.. سأسألُك ماذا عن المسألةِ التي كلمتِني عنها الأسبوعَ الماضي؟**
- **آه. لقد رفضوا: لا بدَّ أنني لم «أحققْ الشروطَ»، وأنا تعبتُ! إن الفراغَ يتعبُني، ويجعلُني أحاكمَ نفسي يوميا: إنني أبلغُ من الضجرِ أني أسمعُ الوقتَ وهو يمرُّ: تك..تك.. لقد سئمتُ من نفسي وكرهتُها كما تُكرهُ حشرةٌ مشمئزةٌ. ما هو الهدفُ؟ الحلُّ يا مهندُ؟ أعطني فرضًا من الفروضِ أستطيعُ به أن أفسرَ جميعَ مشكلاتِ الحياةِ وتناقضاتِها واضطراباتِها، وأعدُك بعد ذلك أنك لن تسمعَ صوتي بعدَ اليومِ.**
- **وماذا قالت أمي؟**

- قالت لي: صلي! لكنني صليتُ صلاواتٍ كثيرةً، وألّفتُ أدعيةً صادقةً، لعل صلاةً منها تنفذُ إلى عمقِ اللهِ، ولكن كما ترى...، أأنا مثيرةٌ للشفقةٍ! بالله عليك ألا تشفقُ علي يا أخي؟
- لماذا أشفقُ عليك؟ الله يسامحُك! لكن الواقعيةَ أمرٌ حسنٌ، يجبُ أن نعرفَ ظروفَنا، وبناءً عليها نفسّرُ ونووّلُ الحوادثَ التي تَرِدُ إلينا.
- الواقعيةُ أمرٌ حسنٌ!؟ هل رأيتَ شخصًا أكثرَ مني واقعيةً؟ إنني من فرطِ واقعيتي أكادُ أكونُ خياليةً! إنني أعملُ وأجتهدُ من أجلِ ألّا ألومَ نفسي، ثم يكونُ الناتجُ صفرًا، ومهما تعبتْ وعملتُ وجدتْ الناتجَ يساوي صفرًا.
- هي هي، ما رأيكِ أن نعودَ إلى ليلى. إن هذه مواضيعٌ كئيبةٌ، ونحن مرضى بداء اليأسِ.. فلنتكلمْ عن ليلى، لنمرحْ...

الفصل الثالث: سبحانَ اللهِ، ما أضخمك أيها الإنسانُ!

إن إخفاءَ الأهميةِ الكبرى التي تتمتّعُ بها ليلى في مجتمعِ الجامعةِ عموما، وفي التويتر خاصةً، وفي هاشتاق الولايةِ على وجهِ الخصوصِ، وعند صديقاتِها أخصُّ من ذلك كلِّه، ليكادُ يكونُ ضربا من ضروبِ المستحيلِ، وجهدًا لا طائلَ وراءه: إن ليلى شخصيةٌ لها وزنُها، تلكم حقيقةٌ موجودةٌ، ألم تقلْ وفاءُ مرةً إننا دونَ ليلى كركابِ سفينةٍ بلا قبطان؟ إننا لا نستطيعُ إخفاءَ أهميةِ ليلى بالمجتمعِ أو تجاهلَها: إن الدهشةَ والكاريزما الخاصةَ

اللتين تنشرهما ليلى بالجوِّ عندما تكونُ في المكانِ شيءٌ لا يستطاعُ إخفاؤه، أمّا عندما طالبتْ الأسبوعَ الماضي في ندوةٍ على هامشِ معرضٍ ما حضرها تسعُ فتياتٍ، وصفتْهن ليلى مرةً بأنهن*: *(Won a good education from both books and life)*، وقالت:

– **إن النساءَ لن يتحسَن وضعُهن بمجردِ إزالةِ الولايةِ؛ فالولايةُ ما هي إلا شكلٌ من أشكالِ التمييزِ «البنيويِّ» بين الجنسين، (وطبعا دارتْ الأسئلةُ حول معنى بنيويّ) إن وضعَهن لن يتحسن إلا بإزالةِ كلِّ مظهرٍ من مظاهرَ التمييزِ بين الرجلِ والمرأةِ وأولُها المظهرُ (اللا–واعي)، أما الولايةُ فشيءٌ من أشياءَ، وأهمُّ شيءٍ تجبُ إزالتُه هو النظامُ القضائيُّ، فيجبُ أن يزالَ كاملا، ويُحلَّ محلَّه نوعٌ من القضاءِ الوضعيِّ الذي يعتمدُ على الدستورِ الذي يصيغُه قانونيون وقضاةٌ بمعزلٍ عن الدينِ...، الدينُ شرّع للآخرةِ، ولكنه لم يشرّعْ للحياةِ المدنية بما يكفي...، آه مسكينُ يا شعبُ، ظلموك يابنَ أمي، حين أرضعوك الفقهَ مع حليبِ الطفولةِ...إلخ إلخ.**

أقولُ: عندما قالت ذلك، أدركن صديقاتُها أنها ليست مجردَ فتاةٍ من الفتياتِ، إن المفرداتِ: «النظامَ القضائيَّ»، «النظامَ الوضعيَّ»، «دستور»، لا تنمُّ إلا عن شخصٍ مختلفٍ بمقياسِ الفتاةِ السعوديةِ، «إنها فتاةٌ عمليةٌ، لا يتجهُ بصرُها وبصيرتُها إلّا إلى لبِّ المشكلةِ، أما القشورُ فلا شيءٌ، نعم، إن القشورَ لا شيءٌ.»، كذلك قالتْ وفاءُ بعدَ نهايةِ الندوةِ لصديقتِها هندَ،

---

* «أي أنهن فتياتٌ مثقفاتٌ، لم يكتسبْن ثقافتَهن من الكتابِ فحسبٌ، بل، أيضا، من ميدانِ الحياةِ الواسع.»

التي ردت على الأولى بترفّعٍ: «آءء نعم لا شكٌّ، هِمْ، إحم»، قبلَ أن تختمَ وفاءُ بـ: «إنها أشبهُ ما تكونُ بالمبشرةِ الرَّسوليَّةِ، التي ستفكُّ البلاءَ عن النساءِ، وتعيدُ إليهنَّ زمانَ الخلافةِ الراشدةِ، أيامَ كانتِ الْمرأةُ *بفسيولوجيتِها الكاملةِ* تمارسُ دورَ القضاءِ، على ما قال وليُّ العهدِ: مبس»، ولكن! هل كونُ ليلى رسولةً كاريزميَّةً شيءُ حقيقيٌّ؟ لا مماراةَ أن ليلى لها حالتُها الخاصةُ، وأنها أوتيتْ هيبةً ما، ولكن هل هي عمليةٌ فعلا؟ إن إسقاطَ نظامِ القضاءِ وإحلالَ نظامٍ مدنيٍّ فكرةٌ خياليةٌ مسرفةٌ في الخيالِ لا تصدرُ عن شخصٍ «عمليٍّ» على حد تعبيرِ صديقتِنا وفاءَ، ولكن هذا كلُّه لا يهمُّ، فالحياةُ والأشخاصُ ليسوا باحثين أكاديميين يُطلبُ منهم العقلُ والمنطقُ، وهذا ما يُكسِبُ ليلى نعومةَ الفتياتِ، وشطحاتِ تويتر.

أما كلمةُ: «*بفسيولوجيتِها*» التي قالتها وفاءُ ذلك اليوم في الندوةِ، فقد سمعتْها ليلى وسجلّتها عندَها. لقد قدّرتْ ليلى أن هذه كلمةٌ فريدةٌ ونوعيةٌ؛ بكونِها سلاحا ضدَّ من يستعملُ ظرفَ المرأةِ الفسيولوجيَّ ضدَّ المرأةِ، لذلك رأت ليلى أن «تستعيرَ» اللفظَ، فـ«تعيدُ صياغتَه» على نحوِ ما يناسبُ الظرفَ والقضيةَ النسويةَ (***Feminist Issue***)، التي «يجبُ على كلِّ امرأةٍ أن تقاتلَ من أجلِها قتالا يبلغُ من الجدِّ أن من الممكن أن تموتَ فيه فعلا لا مجازا».

إما ليلى فقد وُلِدت في العشرين من كانونَ الأولِ (١٩٩٥/١٢/٢٠)، في الرياض، إذن فهي من الرياض! وعندما أقولُ إنها من سكانِ الرياض، فيجبُ على القارئِ أن يتخيلَ ما معنى أن يكونَ الإنسانُ من الرياض، إن الرياضَ هي الـ**RUH**، أي (الروح)، كما فسّرتها راويةُ مرةً عندما عادت

من منشستر. إن ليلى، إذن، من الرياض، المدينةِ الصفراءِ الخاليةِ من كلِّ ما من شأنِه أن يشعَّ الأملَ والتفاؤلَ على الناسِ الذين تعبوا وملّوا من الحياةِ، الكئيبةِ! تُرى أيُّ كفاحٍ ينبغي لنا أن نكافحَه لنصلَ إلى نهايةِ نفقِ تلك المدينةِ التي قال عنها محمدُ عبدُه زورا وبهتانا: «آه ما أرق الرياض تالي الليل.» نعم، عندما نقولُ ذلك، يجبُ أن تضعَ في بالِك الرياضَ نفسَها وما يتعلقُ بالأسلوبِ والطبعِ والخياراتِ...إلخ...إلخ، التي يتمتعُ بها سكانُ الرياض، وإذا كان لسكّانِ الرياض ظروفُهم الخاصةُ، فإن للسعوديين ظروفًا خاصة من بابِ أولى: «إنّه»، أيُّ الفردُ السعوديُّ، «كذابٌ»، كما ترى ليلى، «وهو منافقٌ، وفي جميعِ الظروفِ هو كذابٌ، وفي أحيانٍ قليلةٍ ونادرةٍ تُعدُّ على أصابعِ اليدِ الواحدةِ يكون كذابا أيضا، وهو منافقٌ لا بكونِه فردا، فتلك قضيةٌ مقضيٌّ منها، فجميعُ بنيْ الإنسانِ ينافقون على أنفسِهم، بل إن الفردَ السعوديَّ منافقٌ بكونِه صديقا وحبيبا، أي أن نفاقَه يتجاوزُهُ إلى الآخرين»، كذلك وصفت ليلى المجتمعَ السعوديَّ التي استقته من السوشلميديا، ولا حاجةَ للقولِ بالتعميمِ، فالقارئُ النبيهُ يعرفُ أن هذا ليس كلاما عامّا. نعودُ ونقولُ: ..ولأن ليلى بنتُ الرياض، ولأنها إنسانةٌ أولا وأخيرا، وقبلَ كلِّ شيءٍ، ولأنها سعوديةٌ، ولأنها ترنديةٌ: أي أنها تجري عليها أحكامُ الترند السعوديِّ «مع أنها مختلفة»، إلا أنها –مهما فَعَلَتْ ومهما قيلَ عنها– فإنها تظلُّ فتاةً سعوديةَ الهوى والهويّةِ، وكلُّ ما فيها سعوديٌّ:

«وسمٌ على ساعدي، رسمٌ على بدني..»

فالإنسانُ مهما اختلفَ عن جيلِه، لن يستطيعَ أن يخرجَ من تأثيرِ جيلِه عليه: اللونُ والشكلُ، إنها سعوديةٌ بكلِّ ما فيها، حتى كليشيهاتِها المعروفةَ،

وعن أمِّها: «وُلِدت في ليلةٍ ماطرةٍ عجاجٍ»، فهي إذن نجديةُ/قوسيةٌ الطبيعةِ والبرجِ، وكثيرا ما شبّهت وفاءُ ظروفَ قدومِ ليلى بظروفِ قدومِ المسيحِ، كونهما، أولا، يتفقان في يومِ الميلادِ، ثم ثانيا، يتفقان في كونهما مُبشِّرين!

(عودةٌ إلى مشهدِ مكتبةِ الجامعةِ)

- لماذا انفصلتِ عنه؟ ماذا حصلَ؟
- من..؟ مهنّدُ؟ نعم، صحيحٌ، لقد انفصـ، آي بروك أَب وذ هِم، كما تفعلُ أيُّ امرأةٍ محترمةٍ في هذا العالمِ الزبالةِ مع الأشخاصِ الزبالة...
- نعلم ذلك، لكن لماذا؟
- ماذا تقصدين أنك تعلمين ذلك؟ أن العالمَ زبالةٌ، أم أني انفصلتُ عن الزبالةِ؟
- الاثنين..
- لماذا تسألين إذن؟
- أقصدُ، تحديدا، لماذا انفصلتِ عن مهند!؟
- لقد قلت لك: لأنه شخصٌ زبالةٌ!
- وكيف عرفتِ أنه شخصٌ زبالةٌ؟ أقصدُ ما جعلك تقررين أنه شخصٌ زبالةٌ؟
- أليس هو فردا من هذا العالمِ؟
- بلى.
- وَأَلَمْ نتفقْ أن العالمَ زبالةٌ؟
- بلى.
- إذن هو زبالةٌ جريا على قاعدةِ إثباتِ الجزءِ من الكلِّ.

- **أنحن إذن زبائلُ؟ هه، أمزحُ: أقصدُ لماذا اليومَ بالتحديدِ؟**
- **آه.. فهمتُ قصدَك: إليكِ ما حدث يا وفاءُ، إليك ما حدث، لن أخفيَ ما حدث، ولم عساي أخفيَه؟.. يا لهؤلاء الرجالِ، إن ألفاظَهم لا تنفكُّ تدورُ إما عن الجنسِ بطريقةٍ مباشرةٍ، أو عن شيءٍ غيرِ الجنسِ، لكنه يؤدي إلى الجنسِ بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ، وإن جميعَ تصرفاتِهم في هذه الحياةِ تنبعُ من معنى واحد هو الجنسُ: إن الجنسَ هو الذي يحركُ التاريخ، ويجعلُه يتقدمُ ويتطورُ، وإذا جئنا مرةً وقلنا شيئا عن الحقوقِ والحرياتِ، جاءوا يمارسون دورَ الفاضلِ الذي يخطبُ بالأخلاقِ...**
- **على افتراضِ أن كلَّ ما نفكرُ به نحن النساءَ ما هو إلا قضايا ساميةٌ ورفيعةٌ تهمُّ الإنسانَ! ههه، إننا لا نقلُّ سوءا عنهم..**

قالت امرأةٌ، بطرفِ فمِها، فلم يردْ عليها أحدٌ منعا لوقوعِ ليلى في الحرجِ.

تكملُ ليلى:

- **..ولنسلّم جدلا أننا منحناهم حقَّ أن يكلمونا عن الجنسِ، *وإن المرأةَ حينما تمنحُ صديقَها حقَّ أن يكلمَها عن الجنسِ، فهي إنما تتنازلُ له عن حقٍّ لا تستطيع المطالبةَ به مرةً أخرى؛ إنها لا تستطيعُ أن تقولَ له لاحقا: «التزمْ الأدبَ معي»؛* وأن يتخذونا صديقاتٍ، ويعتبرونا غبياتٍ؛ (ذلك أن مهند يراني غبيةً، لقد استشّفيتُ منه عدةَ عباراتٍ تشيرُ إلى هذا المعنى، ففي سياقاتِه، كثيرا ما يضعُني في موقفٍ**

والذكاءَ في موقفٍ آخرَ مقابلٍ، لكأنني لا أجتمعُ مع الذكاء في موقفٍ واحدٍ: لقد قرأتُ كتبَ كافكا كلَّها، ألم أقرأْ أعمالَه الكاملةَ يا وفاءُ؟ وتركت كليةَ الطبِّ بمعدلٍ تراكميٍّ لم يحلمْ به يوما، وقرأتُ الأخوةَ كارامازوفَ، وقرأتُ كافكا على الشاطئِ، وعالمَ صوفي، *وصحيحٌ أنني لم أفهمْ نصفَ ما قالَه كافكا، لكني مع ذلك قرأتُه*، وقرأتُ التمهيدَ لابن عبدالبرِّ، وهو لم يقرأْ شيئا إلا كتبَ عابدِ الجابري، وابراهيمَ السكران، وكتبَ الأدبِ... ألمْ تريني البارحةَ أقرأُ مذكراتِ فان جوخ، وأَلَمْ أقرأْ كتابَ إلخ إلخ...)، فلنقلْ أننا سمحنا لهم أن يتكلموا معنا كلاما جنسيا، فهم في هذه الحالةِ لا يكتفون بأن يتكلموا معك كلاما مليئا بالتعبيراتِ والتحويراتِ الجنسيةِ التي يصلُ بها الحالُ أن تكونَ تعبيراتٍ حافلةً بالبلاغةِ، الله يلعن الرجال، ولا يكتفون باستنزافِ مشاعرِك، لا، فهم ينقلون، بل *يُمرّرون* إليك عدوى ذكورتِهم بطرقٍ عاطفيةٍ، إن لهم طرقا شيطانية، لعلَّ الشيطانَ يكون بريئا من أعمالِهم كلِّها في نهايةِ الأمرِ!؟

- لعلّهُ يكون كذلك.
- إنها طرقٌ شيطانيةٌ: ..ش ي ط ا ن يّ ة، ولذلك قلتُ قبلَ قليلٍ أن أولَ مظهرٍ للتمييزِ بين الجنسين تجبُ إزالتُه هو سيطرةُ الذكورِ اللاواعية علينا... ونحن بناتٌ، ومهما فعلنا نظلُّ بناتٍ: إن هذه هي المشكلةُ الوحيدةُ التي لم تستطعْ لوجينُ الهذلولُ أن تتعاملَ معها عقلا وموضوعا، وهي كونُنا بناتٍ! فمهما تفعلين يا راويةُ بفتاةٍ ما،

فلن تجعليها تكرهُ الوردَ، مثلا، أو الفساتين، أو العباراتِ الأدبيةِ القصيرةِ، مثلِ:

«من العدلِ أن تقولَ للجميلةِ، إنها جميلةٌ!...»،

إن هذه كلَّها أشياءُ تخترقُ ألبابَنا، ومهما فعلنا فلن نستطيعَ تجاوزُ أنوثتَنا! إن المترتباتِ التي تترتبُ على الأنوثةِ، مثل الرقة والنعومة، هي الضريبةُ المضافةُ التي يجبُ أن ندفعَها؛ لأجلِ كونِنا بناتٍ! لماذا نُحبُّ أغنيةَ مذهلة وبنت النور؟ هل لأنهما آيتان من آياتِ الفنِّ، أم لأنهما مكثفتان بالكلماتِ المؤنثةِ؟

«أبي تعذرين إحساسي إذا قصّر...»

..، well, you know..، وهل تريدين مني، أنا، ليلى، الأنثى، أن أكونَ لا–أنثى؟ إنني أنثى وإن أكنْ قد خاصمتُ الأولادَ بالمنشن! إنني لا أخرجُ عن تصنيفِ الأنوثةِ إلا بقدرِ ما يدخلُ ياسرُ الفيصل بتصنيفِ الجنتلة، وإنني أنثى، وكل ما يتصلُّ بأيِّ أنثى بالعالمِ يتصلُّ بي مباشرةً! هل تريدين، بعدَ ذلك كلِّه، ألّا تؤثرَ بي أشياءُ مثلُ هذه؟؟ ..مهما يكن من شيءٍ، فلقد استولى عليَّ ذلك الخبيثُ: مهندُ، وطلبَ مني أن أرسلَ له صورةَ خصري، فقلت لنفسي: «ماذا في خصري؟ إن خصري دقيقٌ، ولكن ماذا ستنفعُني دقّتُه إن لم يرَهُ أحدٌ؟» أليست الأشياءُ الجميلةُ إنما تكتسب أهميتَها من كونِها مُشارَكَةً ومرئيةَ؟

هنا هتفت فتاةٌ ما:

– هنا يتحولُ الجمالُ إلى سلعةٍ يُهْدَفُ إلى عرضِها للناسِ، لكنك غيرُ مصيبةٍ؛ لأنَّ الجمالَ أعمُّ وأجلُّ من ذلك! إنك يا ليلى لا تزيدين على أن تؤكدي ما قالتْهُ هندُ قبلَ قليلٍ، إذ قالت: «إننا سلعٌ جنسيةٌ لا بنظرِ الرجالِ فحسب، بل بنظرِ أنفسِنا، والفارقُ بيننا أننا نرى أنفسَنا سِلَعًا بغيرِ وعيٍ، وهم واعون لذلك»!

– ما قصدتُ ذلك!! لا تقوّليني ما لا أقولُ..

– طبعا، لم تقصدي ذلك، لأنك قلتِ ما قلتِ دون وعي!

إن لِلَيلى حضورا وكلاما مفوها تستطيعُ من خلالِه، دائما، أن تجعلَ ظروفَ الجلسةِ تتفقُّ مع مصلحتِها، وها هي تعودُ، فتقولُ:

– طيب! وتيفر، لنعدْ إلى ما كنت أقولُ: إن خصري وهو دقيقٌ، فهو لا يعدو أن يكونَ أكثرَ من خصرٍ دقيقٍ! لنفترض أن هناك بنتا مجهولةً لا يعرفُها أحدٌ، تملكُ خصرا لم يحلمْ به أحدٌ أيضا، ولكن من يعرفُ البنتَ هذه؟ لا أحد. من رأى خصرَها؟ لا أحد. هل جاءَها رتويت أو لايك؟ هل مدحَها أحدٌ، هل منشنها أحدٌ بهذا الخصوص؟ هل أرسل لها أحدٌ هكذا: يوما ما؟ قد تكونُ من بناتِ القرى، أو المحافظات، الأرياف، ولقد كانت جميلةً أيامَ صباها، لكنها، الآن، تجاوزت شبابَها، دون أن ينتبهَ لها أحدٌ، دون أن يعطيَها أحدٌ أقلَّ حقوقِها فيثنيَ عليها، ويقول لها: «أنتِ جميلةٌ/حلوةٌ»، أمّا زوجُها، لقد عَلِمَ زوجُها أنها جميلةٌ، لكنه لم يعلمْ أن جمالَها سلعةٌ نادرةٌ، لقد حسب أن الناسَ كلَّهُمُ ينعمون بالجمالِ...، تجاوزت شبابَها فصارت امرأةً الآن، ولعلها ستموتُ يومًا وما كانت تعلمُ أن خصرَها

كان الفاشنَ لزمن طويلٍ جدا لعلَّها الأبدُ، لقد نالت الصدارةَ، لكنَّ أحدا لم يتكلفْ فيخبرْها إنها كانت الأولى والمتصدرةَ، لقد ماتت غيرَ عالمةٍ أنها لم تكنْ عاديةً...، ما أنا ببيلا حديدٍ! لقد سألتُ نفسي مرتين: هل أنا بيلا حديد أم فاطمة المؤمن؟ أأنا واحدةٌ منهما؟

- لا.
- «لا»، كذلك قلتُ لنفسي، ومع كوني رائعة، أنا ليلى، I'm young and hot، على حدِّ تعبير ذلك الخبيثِ، وهذه ثنائيةُ التاريخِ! ولكن من يعرفُ أنني يَنْق آند هوت؟ أتفقُ معكم، لقد قيلت عني مقولاتٌ في المنشن تثني على شعري والحَلَق التي بأذنيّ، ولكن مع ذلك فإن شعري لا يقدمُ ولا يؤخرُ: هل تستطيعُ حَلَقَةٌ أضعَها بأذنيَّ أن تواجهَ العالمَ وتنتشلَه من رذائلِهِ؟ إني أطرحُ هذا السؤال أمامَكُنَّ...، لكن، مع ذلك، فهذا يعني أن لي شيئا أستطيعُ أن أواجهَ به، وأقولَ: «إن شعري رائع»، وهناك فتياتٌ لا يستطعنَ أن يقلْنَ عن شيءٍ فيهن إنه رائعٌ قبلَ أن يظهرنه أولا في تويتر! هل تستوي التي تظهرُ شعرَها في تويتر والتي لم تظهرْ شيئا؟

لم يعرفْ أحدٌ من اللواتي حضرنَ ماذا تريدُ ليلى أن تقولَ، إنها تخبطُ بالكلامِ خبطَ عشواءَ، دونَ أن يكونَ هناك معنى واضحٌ، ولكن يبدو أنها تريدُ أن توضحَ نقطتين، أولاهما أنها فتاةٌ رائعةٌ وأن اناسًا أثنوا على روعتِها وعلى شعرها، وثانيهما أنها مع كونِها رائعةً فإنَّ أحدا لا يعرفُ عن روعتها، إلا الذين في تويتر.

- لا، طبعا، لا تستوي التي تظهرُ شعرَها والتي لا تظهرُهُ! شتّان!

– **نعم، «شتّان!» مفردةٌ دقيقةٌ.. على أيِّ حالٍ، فهذا الحكمُ متروكٌ للأولادِ، فهذا شأنُهم، فنحن لا ننشغلُ بالمظاهرِ ...**

– **صحيحٌ. المظاهرُ. للأولادِ.**

– **..ولكني مع ذلك لست فاطمةَ المؤمنَ، لا تحسبَنَّني أعيدُ وأزيدُ بالكلامِ، هذا سؤالٌ مهمٌّ، سؤالُ المرحلةِ: ما قيلَ عني هو مجردُ حكيٍ، أأنا فاطمةُ المؤمنُ أم لا؟ إنها تحتاجُ ستِّ ساعاتٍ حتى تضعَ المكياجَ قبل أن تظهرَ في سناب، وتحتاجُ ساعتين من التمرينِ؟**

قاطعتْها راويةُ:

– **.... في هذا السياقِ، قرأتُ مرةً في المدونةِ العظيمةِ (ثمانية): إن الشخصَ المهووسَ بالتمارينِ مستعدٌ لأن يشتريَ آلةً رياضيةً صغيرةً بألفي ريالٍ لمجردِ أن يمرّنَ عضلةً خفيةً داخلَ جسمِه لا تُرى إلا بأشعةِ إكس، هل الـ perfection وسيلةٌ أم غايةٌ؟**

– **غايةٌ أم وسيـ..؟ ..آني واي، هل أملكُ ثماني ساعاتٍ أزيّنُ بها نفسي لأُعْجِبَ ناسا معينين؟: مثلِ مهند؟ متى أجدُ وقتا أدرسُ به القانونَ إذن؟ bla bla bla النجماتُ المشهوراتُ الإبليساتُ: إنهن أشطن من العيالِ، الله يلعن الرجال...، ولهذا السببِ عينِه أنا لستُ فاطمةَ المؤمنَ، ولمّا لمْ أكنْ فاطمةَ المؤمنَ، فأنا لستُ بيلا حديد من بابِ أولى، فقلتُ لنفسي: إذا لم أكنْ كهاتين، فمالمانعُ إذن، والحالةُ هذه، أن أرسلَ له صورةَ خصري؟**

– **نعم، ما المانعُ؟ إننا نكرهُ الرجولةَ، بيدَ أننا لا نكرهُ الرجلَ الذي يجبُ علينا أن نعجبَ بِهِ، ونحبَّه..**

كذلك قالت فتاةٌ ما..

- **ثم إنه لا يستطيعُ أن يتبينَ شيئا من خصري، بالعكس، قد يعتقدُ أنني أفضلُ مما أنا عليه!**
- **ولكنه مع ذلك قد يعتقدُ أنك أسوأُ مما أنتِ عليه، فأنتِ، بالنهايةِ، لستِ فاطمةَ المؤمنَ!**

هي نفسها الفتاةُ السابقةُ قالتْ ذلك. ولكن راويةَ تدخلت ههنا، ثم بدأَ الحوارُ بين ليلى وراويةَ، فأُثير استغرابُ راويةَ من أن مهند طلبَ صورةَ خصرِ ليلى ولم يطلبْ صورةَ وجهِها!

ولكن قبل ذلك، دعونا نتكلمْ عن راويةَ قليلا؛ إنها شخصيةٌ مرحةٌ، ثم سنعودُ إلى إكمالِ الحوارِ.

الفصلُ الرابعُ: ماذا تفعلُ راويةُ في منشسترَ؟

وُلدتْ عامَ (١٩٩٧)، أي أنها من خيرةِ مَنْ يمثّلُ المراهقين الذين سيُسمّون لاحقا: جيلَ التويتر، كما نُسمي الآن جيلَ الثمانينات، جيلَ الطفرةِ، جيلَ الطيبين..إلخ، أما البقيةُ من بناتِ هذه الأقصوصةِ: فمواليدُ خمسٍ وتسعين وأقلّ، والمواليدُ الذين بين تسعين وخمسٍ وتسعين، ليسَ لهم جيلٌ معيّنٌ؛ فهم جمعوا من الجيلين، الثمانينات، وجيلِ نصفِ التسعينات الثاني، فاستطاعوا أن يتجاوزوا تقليديةَ الثمانينات ومحدوديةَ

أفكارِهم؛ ذلك أن مواليدَ الثمانينات، وإن كانوا في شبابَهم استطاعوا أن يعيشوا زمنَ الانترنت والاتصالاتِ، إلّا أن مرحلةَ مراهقتِهم كانت قبل ذلك، مما جعلهم جامدين قليلا؛ لأن المرحلةَ التي تحددُ وتكونُ هويةَ الإنسان، هي مرحلةُ مراهقته، وفي هذه النقطةِ بالذاتِ يتميزُ مواليدُ التسعينات، فإن مراهقتَهم كانت مُزامنةً بدايةَ تويتر، وبرامجِ اليوتيوب..إلخ، أي أنهم جيلٌ معاصرٌ إلى أبعدِ حدودِ المعاصَرةِ، واستطاع التسعينيون أن يبتعدوا عن أساليبِ المراهقين، وقلةِ ذوقهم، فلهم السبقُ إذن، وقد انتقل أهلُ راويةَ من أبها عامَ واحدٍ وتسعين، هروبًا من نيرانِ الصحوة، فلقد كان أبو راويةَ أقربَ ما يكون إلى تركي الحمد في هذا الوقتِ، فقرر أن ينتقلَ إلى الرياض، وقد كان تاجرا بالأحجارِ الكريمةِ النادرةِ، وتُرى محلاتُه مشهورةً في الرياض. ويتضحُ لنا إذن أن راويةَ ليست ك (فيبي) دائما وأبدا.

وقد سافرتْ راويةُ إلى منشستر كي تتعلمَ وترفعَ اسمَ العائلةِ في محافل العلمِ والثقافةِ كما رفعَها الأبُ في الاقتصادِ: تُرى ما هذا العلمُ الذي هزَّ العالَمَ، ما هو هذا الصاينص الذي يكادُ يكونُ صنما يُعبدُ، ما معنى التفاضلِ والتكاملِ؟ ما هذه النقاطُ كلُّها؟ إلى أيِّ علوٍ يريدُ المتعلمون أن يصلوا؟ وقد تخاصمتْ مع أمِّها لسبب أن أمَّها أرادت منها أن تذهبَ إلى منشستر، وراويةُ أرادت أن تذهبَ إلى باغي (باريسَ)، مما دعا راويةَ أن تقولَ لأمِّها: «أنا من سيسافرُ، لا أنتِ»، ولم تكنْ راويةُ من كبار المعجبين بآراء أمِّها وذوقِها، ولا تضعُ آراءَ أمِّها محلَّ الثقةِ فيما يتعلقُ بالمسائلِ العصريةِ، مع أنَّ الأمَّ من مواليد سبع وسبعين، أي أنها أمٌّ كلاسيكيةٌ، عاشت أجواءَ السبعينات، وأصلُّ الخلافِ المشهورِ عندَ صديقاتِ راويةَ بين راويةَ وأمِّها،

يعودُ إلى العام ألفين وأربعة، عندما أرادتْ راويةُ أن تسافرَ إلى باريس من أجلِ (ديزني لاند)، فقالت لها أمُّها: بل يجبُ أن نسافرَ إلى ميونخ ففي ميونخ يوجدُ متحفٌ أسبيـ..إلخ، وانتهى الحالُ أن قررتْ راويةُ أن تثقَ بأمِّها الكلاسي وتحبَّها، وتعتبرَها (ديانتِها الخاصةَ التي لم تمتْ عامَ ١٩٩٧)، هل شيءٌ أروعُ من أن يعجبَ المرءُ بأمِّه اعجابا خارجا عن الموضوعات البايولوجية! ولكنها ما لبثت أن عادت من منشستر، فإن السفرَ، لا منشستر، على ما يبدو هو الذي لم يعجبْها، وكانت ليلى تقدّر راويةَ تقديرَ شخصٍ استطاعَ أن يسافرَ إلى ميدانِ بيكاديلي مع وجودِ كلِّ تلك الظروفِ، وقد عرفَت هناك شابا يكبرُها بخمسِ سنوات، وهو شابٌ جميلٌ، يستطيعُ أن يجعلَ لنفسِه شعرا في دقنِه إذا أشارتْ عليه راويةُ بذلك: وهو يحققُ شروطِ الفتاةِ العصريةِ عامَ ٢٠١٨، وهو سليلُ عائلةٍ كبيرةٍ معروفة بالدين، وهو مثقفٌ يستطيعُ أن يبتَّ في قضايا كثيرةٍ ابتداءً من ابنِ تيميةَ مرورا بشكسبير انتهاءً بأينشتاين وابنِ رُشْد وكارل ماركس والإصلاحِ الدينيِّ، أي أنه موسوعيٌّ من أولئك الموسوعيين الذين كسبوا ثقافتَهم من كتب الـpdf، والحمدُ للهِ لم يُعْلَمْ عنه أنّه شكك في كتابِ البخاريِّ، وإلا لكُنا صففناه مع عدنان ابراهيم في صفٍّ واحدٍ! وهو لا يتابعُ المسلسلات يا لفداحة المشكلةِ! ونذكر نقطةً مهمّةً يجب أن ينتبهَ لها الصديقُ القارئُ، أن راويةَ ظنّت أو جاءَ على بالها: إن فارس يحبُّ إثارةَ الانتباه، لكن ليس على طرازِ نشرِ فيديوات لأخيه الصغيرِ باكيا عند الكعبة، بل إنه قد بتَّ بقضايا عُرِفَتْ أنها محلُّ خلافٍ بين العلماء: فقد أفتى بجوازِ زيارةِ النساءِ المقابرَ، وغيرُ ذلك من مسائلَ العلمِ، وأنكرَ الوهابيّةَ، وقال إنها ليست موجودةً، وإن

الموجودَ هو أتباعُ عبدالوهاب فقط، أما لفظ: «الوهابيّةِ» فليس موجودا...إلخ، ولكنه مع ذلك: «لا يمكنُ الّا يكون غنيا، فمن يهتمُّ هل قرأتَ ابنَ تيميةَ أم لا، إذا كنتَ غنيا؟»، كذلك لاحظتْ راويةُ مرةً ملاحظةً ذكيةً لليلى معلقةً على حبيبِها المنشستراوي، وكأنها، هي راوية، بريئةٌ من المسألةِ، ثم أكملت: «إن الأشخاصَ الأغنياءَ لا يمكن أن يتخلصوا من لعنةِ الغناء التي حلّت عليهم؛ *وأن المالَ لعنةٌ*، فهم –أي الأغنياء– لا يستطيعون إلا أن يكونوا أغنياءَ مهما فعلوا، ومهما ناموا في صحاري افريقيا بلا فراشٍ من أجلِ البحثِ العلميِّ، إلّا أن فعلوا كما فعلت ريتشل عندما هربت في ليلةِ زواجِها...إلخ»، ثم أعلنَ هذا الشابُ المثقفُ الذي قرأَ كتابَ درءِ التعارض، مرتين، بعد أسبوعين من لقائِه الأولِ براوية أنه سيتزوجُ بها، وأنه جادٌّ في ذلك كلَّ الجديّةِ، وأنها متى أعطته الإشارةَ قام هو بالاتصالاتِ اللازمةِ. إن هؤلاء شبابٌ مرحون يحبُّهم الناسُ كلُّهم، والبناتُ كذلك، وهم الذين دائما نراهم في تويتر يدعمون حقوقَ النساءِ، إن الشعراءَ مهما أوتوا من العلمِ، فإنهم يجعلون المشاعرَ حَكَمًا فوقَ العقلِ، وتلك آفتهم. على أيِّ حالٍ، فقد ماطلت به أسبوعين آخرين، قائلةً له: «سنتزوج حين يجبُّ أن نتزوجَ يا فارسُ، تحلَّ بالصبرِ، وكُلْ واشبع، ما بالك ضعيفا كلَّ هذا الضعفِ...»، ثم قالت له بالغدِّ: «إنك رائعٌ، وإن ساعتَك التي في معصمِك رائعةٌ، أهي من رولكس؟، أهي بستين ألف؟ إنها بالرياض بثمانية وخمسين ألفا: الفرقُ: ألفان..نعمةٌ..لكني ما أنا براغبةٍ بالزواجِ...، إنني صغيرةٌ أتابع الإنمي! إنني غير قادرة أن أتصرفَ بقطٍّ من القططِ، فهل تطلبُ مني أن أديرَ منزلا؟ ثم، هل تريدُ الزواجَ من فتاةٍ تتابعُ الإنمي يا

فارسُ، وأنتَ الذي تريدُ أن تحققَ الماستر في الاقتصادِ الكليِّ؟ إن جمالي لا يكفي يا فارسُ: لقد ماتت مرلين مونرو لأنها ظنت أن جمالَها سيبقيها بمعزلٍ عن الكوارثِ.. قرو أب..إلخ»، ثم اختفت فعادت إلى الرياض من الغدِّ.

وفي الأسبوعِ الأولِ من عودتِها إلى الرياض، أثمرتْ أولُ ثمراتِ الابتعاثِ؛ ذلك أن الشخصَ عندما يخرجُ من الوطنِ لا يعودُ كما كان، تلك قضيةٌ مقضيٌ منها، أما فكرةُ راويةَ فهي أنها رأت أن من الخيرِ للناسِ ألّا يلتزموا بالنحوِ، وأن يُبْعَدَ عن اللغةِ الرسميةِ داخلَ الحكومةِ والبلادِ، ومن بابِ أولى ألّا يُدرَّسَ في الجامعاتِ، إلا في التعليمِ الأوليِّ، «من أجلِ فهمِ آياتِ محكمِ التنزيلِ»، وطالبت بإزالتِه باعتبارِهِ نوعا من الكريبي (Creepy)، (أي لأنه يسببُ الارتباكَ)، وإن الالتزامَ بالنحوِ تنطعٌ وتلكؤٌ في الوقتِ ذاتِهِ، وفي رأيِها أن جمعَ المذكرَ السالمَ يجبُ أن ينتهيَ دائما بياءٍ ونونٍ في الرفعِ والخفضِ والنصبِ، حتى لا تتعقدَ الأمورُ «على الطالبِ»، وضربتْ مثالًا باللغةِ الإنجليزيَّةِ، تلك اللغةُ المقدسّةُ التي شربْنَها المراهقاتُ مع حليبِ الطفولةِ، التي تكادُ تطأُ العربيةَ بقدميها بين فتياتنا، وقد وصفَ عالمٌ سعوديٌّ اسمُه أسامة الـ... وهو ذو شهادةٍ كبيرةٍ في تخصصِه، هذه الحالةَ بأنّها نوعٌ من «الإمبرياليةِ الجديدةِ التي تمارسُها الدولةُ العميقةُ!»، فرددن عليه بناتٌ في تويتر بأن «يصمتَ»، لأنّه «لم يتعلمْ الإنجليزيةَ»، «وإذا كانت حروفُ العلَّةِ على سهولتِها مجهولةً عندَكَ، فمن الأفضلِ أن تصمتَ»، وقد ردّت عليه واحدةٌ منهن بردٍّ إنجليزيٍّ طويلٍ مليءٍ بتلك الحروفِ التي تُكتبُ ولا تُنطقُ؛ وكأنها تقولُ له: إذا لم تكن

تفهمُ منشني –أنا المراهقةُ الصغيرةُ–، هل تظنُّ أنك تفهمُ الإمبرياليةَ؟، فقال: «صحيحٌ أني لا أعرفُ حروفَ العلةِ الإنجليزيةَ، لكني أعرفُ علّتكنّ»، فبَلَّكَنَّهُ! إذن نعودُ ونقولُ إن راويةَ ضربت بالإنجليزيةِ مثالا، وقالت إن الفاعلَ والمفعولَ والمخفوضَ دائما ما يجيءُ على نفسِ حركةِ الإعرابِ مهما اختلفَ العاملُ، وبالفعلِ أرسلتْ المُقترحَ في منشن إلى الغذاميّ، لعله ينصرُها، فإن له سوابقَ في إضافاتِهِ وتعديلاتِهِ على اللغةِ، إلا أنه سَحَب عليها، وقد حَزُنَتْ كثيرا لأنها لم تفهمْ الممنوعَ من الصرفِ كما يجبُ في يومٍ من الأيامِ.

(لا زلنا في مشهدِ مكتبةِ الجامعةِ)

نعودُ، إذن، إلى سيرِ قصتِنا، ونتذكرُ أننا وقفنا عندَ اللحظةِ التي تُفاجأُ فيها راويةُ أن حبيبَ ليلى طلبَ صورةً لخصرِها، ولم يكنْ، هو، قد رأى وجهَهَا:

- **ويت، ألم يرَ وجهَكِ؟ بينكما علاقةٌ ولم يرى وجهَك! وكيف قالَ إنك ينق أند هوت إذن؟**
- **لا لم يرَه؛ لأنه لم يطلبْ مني! أمّا قولُه أنني ينق، فقد رأى مرةً بنطلوني، لا، بل فستاني الذي اشتريتُه من فرنسا، وعلى ذلك انتهى إلى هذه النتيجةِ أنني ينق أند هوت... إن الذكرَ السعوديَّ يسنطيعُ بتفصيلةٍ صغيرةٍ أن يخرجَ بمعلومةٍ كبيرةٍ، وهذا ما لا يستطيعُه الكمبيوترُ والتقنيةُ، إنّه لمذهلٌ حقا: ما أضخمك أيُّها الرجلُ. مين آر وندرفول..**

يجبُ علينا أن نقولَ هنا، أن راويةَ نقلت الإجماعَ عن صديقاتِ ليلى: وفاء وهند والآخريات اللواتي لم نكتبْ اسمَهن منعًا لكثرةِ الأسماءِ، نقولُ أن هؤلاء البناتِ أجمعَنَ أن مهندَ لم يحبّ ليلى إلا بسببِ هذا الفستانِ، فقد كان الفستانُ آيةً من آياتِ الدقةِ والروعةِ، أُشتري من فرنسا خاصا لليلى، وقد كلّف أكثرَ من ثلاثةِ ألاف يورو من تصميمِ ***، دفعَها أبو سالم —عمُّ ليلى— بطيبِ نفسٍ، معتقدا أنه يخدمُ ابنةَ أخيه الصغيرةِ الفقيرةِ التي «لا مآلَ لها إلا اللهَ»، وقد رآى الفستان مغردٌ شابٌ، فقال: «إن هذا ثوبٌ رائعٌ» (بالعاميّةِ)، فلَمّحت المغردةُ المعروفةُ أمُّ ساجدٍ، إلى مفردةِ: «الثوبِ»، وقالت إن به نوعًا من التمييزِ بين الجنسين، فَلِمَ قالَ ثوبٌ، ولم يقلْ فستان؟ وقالت أيضا إن هناك تقسيمًا ما، لأن المغردَ سمى الفستانَ ثوبا هروبا *لا واعيا* من المفردةِ المؤنثةِ، وما هذا المغردُ إلا عيّنةٌ تمثلُ الرجالَ كلَّهم، وهو مجردُ شكلٍ من أشكالِ السيطرةِ الثقافيةِ، التي تكلَّمَ عنها الغذاميُّ في افتتاحيةِ كتابِه: (المرأةُ واللغةُ)، على وزنِ: «خيرُ الكلامِ ما كان لفظُه فحلا ومعناهُ بكرا» وقالت: هذا التمييزُ هو ذاتُه التي تحاولُ حملةُ: سعودياتٌ يُرِدْنَ إسقاطَ الولايةِ، أن تزيلَه، وكانت قد بسطتْ ثريدا طويلا بلغَ ألافَ اللايكات، فلْيرجعْ إليه من شاءَ أن يرجعَ، وعلى أيِّ حالٍ، فلنعدْ إلى الحوارِ:

– إذن، طلب صورةَ خصرِك، لكنه لم يطلبْ صورةَ وجهِك!؟ ويل، أعترفُ، أنا راويةُ، في هذا الموقفِ، أن الرجلَ لا يلعبُ النردَ، Men don't play dice إن كلَّ ما يقومُ به، يقوم به وفْقَ خطةٍ ما، إنه لا يلعبُ اللودو..

LOL! They do, and not only that *they do play dice*, they sometimes confuse us by throwing them where they can't be seen!

بهذا الشكلِ اعترضتْ وفاءُ على راويةَ. وتكملُ ليلى:

– إن هذا هو رأسُ المشكلةِ كلِّها: لماذا يطلبُ صورةَ خصري، لا وجهي؟

– صحيحٌ، إن هذا هو السؤالُ الحقُّ! لكن ألمْ تسأليه لماذا؟ لماذا يطلبُ طلبا غريبا كهذا؟

– بلى، لقد سألتُه، فقالَ (استعدوا للقنبلةِ): «إنه يخشى أنه إذا رأى وجهي، فلم يعجبْه، أن تتغيرَ علاقتُنا وتتأثرَ بفعلِ "هذه الرؤيةِ" التي رأى بها وجهي»، فهو يقولُ إنه سيستغني عن رؤيتِهِ وجهي من أجل أن تستمرَ علاقتُنا مستقرةً.

– وما معنى «الاستقرارِ» في قاموسِ الذكرِ؟

– لا أعلمُ.

– لا علمَ لي.

– لا تسألنني.

– نو آي ديّا.

– ولكنه، مع ذلك، يقبلُ أن يرى خصرَك؛ لأن خصرَك لن يؤثرَ عليه!؟

– هكذا يبدو الأمرُ!

– !

– !!

- !!!
- ما هذه إلا تفاهاتٌ!
- وقد يكونُ وراءَ هذه التفاهاتِ نوايا غريبةٌ. ولكن المسألة interesting فعلا...، وماذا قال عندما رأى الصورةَ؟
- لم يرَها بعدُ، بل لن يراها، فما حاجتُنا بقولِ: «بعدُ»، إذ أننا انتهينا؟

يجبُ القولُ هنا أن ليلى أرسلتْ له الصورةَ لاحقًا.

- نعم صحيحٌ، فما حاجتُنا بقولِ: «بعدُ»، إذ كنتما قد انتهيتما؟
- طيب؟ لم تقولي لنا سببَ الخلافِ بعدُ! لقد قلتِ لنا قصةَ الصورةِ، وهي قصةٌ ممتعةٌ حقّا، لكننا لم ندركْ، بعدُ، السببَ؟
- نعم صحيح لم نستوعبْ! هل سببُ خلافِكما يتعلقُ بالولايةِ؟

إن ليلى امرأةٌ قادرةٌ على استيعابِ مشاكلَ الحياةِ وظروفِها كلِّها ثمَّ إعادةِ صياغتِها لتجعلَ منها ظرفًا يساعدُها على أن تعيشَ حياتَها بوجهٍ أفضلَ، وأقوى، ولقد وقعتْ في حطايا جسامٍ، لكنها استطاعتْ أن تتعايشَ مع كونِها «مخطئةٍ»، لقد تقبلّت أن تكونَ مخطئةً، وقبِلتْ أن تعترفَ بأن هناك خطايا جساما قامت بها، وأولُ هذه الأخطاءِ وأهمُّها هو خطأُ الطبيعةِ والقدرِ: ثم أنّها قد أضاعتْ سنينَ عمرِها تدرسُ تخصصا لم يعجبْها، وإن ظروفًا أخرى كثيرةً تحيطُ بها، وتتربصُ بها الدوائرَ: فغيرُ أنها أمضت ثلاثَ سنواتٍ بكليةِ الطبِّ ثم تركتْها إلى دراسةِ القانونَ، فإن والديْها أولا متوفيان، ولذلك نراها تلجأُ إلى «الحبِّ والعلاقاتِ»، أي إلى: مهند، وفي هذا السياقِ يجبُ أن نقولَ إن السعوديين اخترعوا نوعا جديدا من العلاقاتِ، بل

نوعا جديدا من الحبِّ، يخضعُ لمقياسِ تويتر أو السوشلميديا، ولا يخضعُ لمقياسِ الحياةِ؛ ذلك أن الحياةَ لا تمتُّ بِصِلَةٍ إلى تويتر. ولقد حُقَّ للسعوديين أن يفخروا بهذا المنتجِ المحليِّ، ويمكنُ وصفُ هذه العلاقاتِ بأنها بناءٌ حقيقيٌّ مقامٌ على قواعدَ افتراضيةٍ، وعلى أيِّ حالٍ، فقد قررت ليلى أن تتجرأَ على الواقعِ فتحبَّ؛ إن التجرؤَ على الواقعِ هو أولُ خطواتِ تغييرِه، ثم بعدَ ذلك يأتي رفضُه في الخطوةِ الثانيةِ، أمّا ليلى فقد كان لها نفسٌ كبيرةٌ بلَغَت من الكِبَرِ أن جعلتها تتجرأُ على الواقعِ فتحبُّ شخصا هو مهند الذي يجعلُ من الحياةِ أكثرَ صعوبةً، لكن الحبَّ ليسَ مفترضا به أن يجعلَ الحياةَ سهلةً، بل عليه أن يجعلَها قابلةً للتعبيرِ ومضادةً للجمودِ، وأن شخصيتَه يحيطُ بها كثيرٌ من اللغطِ وعدمِ الفهمِ، وعدمِ الواقعيةِ، والغموضِ، فهو، أولا، تركَ دراستَه، قبلَ سنتين، في الكليةِ التي كان بها؛ بسببِ أنها لم ترق له؛ نعم، تلكُمُ يا أعزائي ناسٌ غريبةٌ، أناسٌ تحبُّ تركَ الأشياءَ إذا لم تتفقْ مع المزاجِ، فهو يريدُ تخصصا في كليةِ أخرى، ثم لم يعدْ بعدَ ذلك إلى الجامعةِ أبدًا، ولم تنجحْ المحاولاتُ الكثيرةُ من ليلى أن تثنيَ عزمَه.

لا، ما أنا بطارقِ الحبيبِ، ولم أدرسْ علمَ النفسِ يوما، لا ولم أُعطَ شهادةً، ولكني أرى ألّا مندوحةَ لي من تقديمِ وصفٍ سيكيولوجيٍّ عاطفيٍّ لوضعِ مهند وصديقتِه ليلى: إن ليلى تبلغُ من الاندماجِ أنها تصرفُ معه ساعاتٍ طوالا بنقاشاتٍ طويلةً، نقاشاتٍ تصلُ في عمقِها ومواضيعِها أنها تتجاوزُ الحياةَ إلى مواضيعَ الغيبِ، إلى مواضيعَ يظنان هما أنها تتعلقُ بحياتِهما كاملةً، لا أقصدُ حياتَهما معا، بل حياةَ كلِّ شخصٍ منهما لوحدِه، بخياراتِها وتفاصيلِها: إن مشكلةَ مهندَ مشكلةٌ فلسفيةٌ بالمقامِ الأولِ، وأمّا

مشاكله الصغرى مثلِ التخصصِ وخلافِه، هنا، في قصتِنا، ما هي إلا شكلٌ من أشكالِها، أما جوهرُها ولبُّها فهو الحياةُ كاملةً. إن ليلى لمّا بدا أنها تخلتْ عن مهند، لم تتخلَّ عنه للأبدِ، بل لقد كان هناك جزءٌ صغيرٌ، دقيقٌ، داخلَ قلبِها، جزءٌ صغيرٌ ما زالت تَعْمَلُ فيه الإنسانيةُ، جزءٌ يرغبُ بمهند؛ لا لأنه شخصٌ رائعٌ، ولا لأنه ذكيٌّ، فالروعةُ مؤقتةٌ، والذكاءُ مؤقتٌ: إن هذه أشياء مؤقتةٌ عارِضةٌ، ونوعٌ من المظاهرِ، فالذكاءُ نوعٌ من المظاهرِ أيضا! لقد كانت ليلى تحبُّه لأنه يمثلُ قيمةً ما، يمثلُ فكرةً ما من الأفكارِ التي تساعدُها على التفكّرِ بالوجودِ والحياةِ، لقد كانت ليلى تحبُّه لأنه يدفعُها إلى شيءٍ ما، هي لا تعرفُه، ولعلها كانت تظنُّ أنه يدفعُها إلى أن تكونَ هي نفسُها، أن تكونَ ليلى. إنها عندما تؤوبُ إليه في الليلِ، عندما كانت تكلّمُهُ، كانت في نفسِ اللحظةِ عينِها، تؤوبُ إلى نفسِها، وعندما تنتهي منه نجدها ليلى جديدةً: عندما تركت كليةَ الطبِّ، كان ذلك بعدَ مكالمتِها معه، وهو لم يلمحْ لها ولم يقلْ لها شيئا حولَ هذا الموضوعِ، ولكنّ مُخَاطَبَةً روحيةً كانت قد انعقدت بينهما فأُوحيَ لها بهذا الأمرِ، وعندما تتأملَ آلامَ مهندَ، فهي تتأملُها كما تتأملُ شيئا نادرا لا تصادفُه في الحياةِ إلا مرةً أو مرتين! كانت تعتقدُ أن خلفَ هذه الآلامِ يوجدُ سرٌّ كبيرٌ لن تستطيعَ هي نفسُها أن تسبرَ غورَه في يومٍ من الأيامِ، ولذلك كانت تعطي كلَّ لمحةٍ من آلامِه أهميةً قصوى. وعندما تستقبلُ صوتَهُ بالهاتفِ، تستقبلُه وتدخلُه إلى عمقِها كتحفةٍ من التُّحفِ، ومع كلِّ ما فعله مهندُ من أشياءَ نادرةٍ الحدوثِ، وطلبِهِ صورا غريبةَ يغلبُ عليها الطابعُ الماديُّ، وإلى كلِّ السيئاتِ التي في مهند، وقناعاتِه المتطرفِة، وسطحيتِه وتخلفِه، و«لحجيتِه» كما عبرت راويةُ

مرة، واضطرابِ مزاجِه الذي كثيرا ما نصحتْ من أجلِهِ ليلى أن يزورَ طبيبا نفسيا، لكنه لم يفعلْ ذلك طبعا، كما هو حالُ أولئك الذين يجبُ أن يزوروا طبيبا، ومن هذا المقامِ يسرُّنا أن نخرجَ قليلا عن السياقِ الروائيِّ ونعممُها قاعدةً مُطّردةً: إن جميعَ من يرفضُ زيارةَ طبيبٍ نفسيٍّ، يجبُ أن يزورَ طبيبا نفسيا بالضرورةِ، وجميعَ من يزورُ طبيبا نفسيا فما عليه بالضرورةِ أن يزورَ طبيبا، وهذه القاعدةُ تتحققُ في مهند، وعلى أيِّ حالٍ فجميعُنا نحن الذين نسكنُ البقعةَ الجغرافيةَ الملعونةَ المسماةَ جزيرةَ العربِ نحتاجُ أطباءَ نفسيين: لقد كانت دعوةُ ابراهيمَ عليه السلامُ مُحددةً بمكةَ فحسب! نعودُ إلى القصةِ: ..الحقيقةُ أن مهند هذا يمكنُ أن يوصفَ بأنه خياليُّ النزعةِ، تبعًا لمرضهِ النفسيِّ، وهو تعصفُ به أهواؤُهُ الخاصةُ: وطلبُهُ صورةَ خصرِ ليلى خيرُ دليلٍ على ذلك، وهو يعيشُ الحياةَ وفقَ قانونِه الخاصِّ؛ إنه بنهايةِ المطافِ مرتبطٌ بليلى، وليس ارتباطُه بها اعتباطا، بل إنه القدرُ. إن المعاناةَ شيءُ موروثُ لا بينَ الأقاربِ فحسبٌ بل بينَ الأصدقاءِ والأحبةِ، إن للقدر أشياءَه الخاصةَ، كما أن للهِ طرقَهُ الخاصةَ أيضا، وهؤلاء أشخاصٌ ورثوا الألمَ وشربوه مع حليبِ الطفولةِ كما في تعبيرِ ليلى، وهو لا يقيمُ وزنا للواقعِ ولا لظروفِه: إلا في حالةٍ واحدةٍ عندما يكونُ الواقعُ غيرَ متصلٍ به لا من قريبٍ ولا بعيدٍ، فهو حينئذٍ يكونُ فردًا فعالًا في حلِّ هذه المشاكلِ التي عَرَضَت عليه. ومع كلِّ هذه الأشياءِ إلا أنه يبقى شخصا فريدا من نوعِه، ونُقلَ عنه مرةً أنه قالَ لصديقِه يومَ أن لمَّحَتْ ليلى أنها يمكنُ أن تنفصلَ عنه:

(مهندُ مع أحدِ أصدقائه)

قال محمدٌ فيما يبدو أنه كلامٌ عن ليلى:

- اتركها! اسحب عليها، خاصةً وأنها لمّحت لك، ألم تذكرْ (البريك) أمامَك! إنها ليست على مقاسِك؟ إنها من نوعِ البناتِ اللواتي يشترنَ بنطلونا من فرنسا، هل أنت متأكدٌ أنك تريدُ الارتباطَ بفتاةٍ تشتري ملابسَها من فرنسا؟ لا أظنُّ. وليتَها تشتري، إنها يُشترى لها...، إن جزمتَها أغلى منك! ستقولُ لك غدا: «يا مهندُ، اشترْ لي جزمةً»، لا لأنها تريدك أن تصرفَ عليها، بل لأنها لا تريدُ من شخصٍ آخرَ أن يقومَ بهذه المهمةِ الخاصّةِ العاطفيّةِ الموغلةِ بالفتنة: إن إهداءَ قطعةٍ من الملابس لفتاةٍ، في رأيي، يوازي كتابة بيت من قصيدة:

«تهادي على غصن الليل...»

طوبى للفقراء لأنهم لن يقفوا في طابورَ ستربكس في يومٍ من الأيامِ، ولم يعرفوا ماهو الباريستا...، هيه، هيه: اصحَ، لسنا في مشهدٍ تلفزيونيٍّ! ثمَّ، هل كنت تحبُّها من أجلِ خصرِها، أم من أجلِ أنها ليلى؟ إن هذه أفكارٌ حيوانيةٌ، يجبُ عليك، يا عزيزي، أن تقلعَ عن هذه الأفكارِ الطائشةِ: ماذا تركت للشبابِ؟

- طيب؟ وماذا في ذلك؟ أأنا أولُ واحدٍ يطلبُ صورةً؟ إن أشخاصا ليسوا بأفضلَ منّا قد نالوا ما هو أكبرُ من صورةٍ! نحن مساكين، ولكن دعنا لا نكونُ طاهرين أكثرَ مما يجب: فماذا عسى الطهارةُ أن تفعلَ في عالمٍ يطفحُ بالإثمِ والمعاصي؟ يومَ القيامةِ لن يقولَ لنا اللهُ: «يا مهندُ ويا محمدُ إنكما مذنبان وتستحقان العقابَ، بل سيقولُ: يا مهندُ ويا محمدُ، ما الذي دعاكما أن تذنبا؟»، هكذا...، إننا في عالمٍ محاطٍ بالفخاخِ وبالبناتِ والطُّعومِ. ماذا عسى العفّةُ فاعلةً في

أمّةٍ ذاتِ نفسٍ أمّارةٍ بالسوءِ؟ ماذا عسى العفةُ والطهارةُ فاعلتين في مجتمعٍ جانحٍ طوالَ وقتِهِ إلى «الفكرةِ الجنسيةِ»؟ ثمَّ تعالَ، وقلْ لي: ما هو الشيءُ الخفيُّ الواضحُ الذي تعملُ مكائنُه داخلَ أجسامِنا، ذلك الذي يدعونَه «شبقًا»؟ إنها شهيةٌ، إن ليلى شهيةٌ: هي فتاةٌ شهيةٌ، لذيذةٌ لذةً تجعل الإنسانَ يقدّم ثُلثَ جسمِه الأوسطَ على ثلثِه الأعلى كما يقول أرسطو! إنها رائعةٌ! هل يمكنُ إخفاءُ هذه الحقيقةِ، من أجلِ أن يُقالَ: «نعمْ، إن مهندَ يحبُّ فتاتَه حبًّا عذريًا، آه، ياللروعةِ، يا للمشهدِ الرائعِ، أووهء ☹:

«وأمطرتْ لؤلؤًا من نرجسٍ، وسَقَتْ

وردًا، وعَضّتْ على العنّابِ، بالبردِ..»

...، إني أسألُك الآن، فأجبْ! اسمعْ، يجبُّ أن نأخذَ الأشياءَ على ما هي، لا على ما تجبُّ أن تكونَ... إننا لم نصلْ إلى الكمالِ... لم نُفعّلْ رؤيةَ مبس 2030، ولم نبلغْ دولةَ (أفلاطونَ) بعدُ، إننا بشرٌ، وفينا من آثارِ الحياةِ القديمةِ الشيءُ الكثيرُ، والشيءُ الوحيدُ الذي استجدَّ فينا منذُ قرونٍ هو أننا لم نعدْ نفترسُ بعضَنا من أجلِ البقاءِ، بل أصبحنا نأكلُ التوستَ...، ثم إذا كنا حيواناتٍ، فلنكنْ حيواناتٍ، وماذا في ذلك؟ أتراكَ تخشى أن تكونَ حيوانا؟ ألا فاعلمْ أن الحيوانَ أفضلُ منك مع أنك أوتيت عقلا وهو لم يَعْقِلْ! أليست «القطةُ» حيوانا، أليس هو، القطُّ، المخلوقُ البجيحُ والمتغطرسُ ذو العينين البغيضتين الذي يكادُ ينافسُ الإنسانَ في مكانتِه (عندهن) أليس هو حيوانا؟ فماذا فعلتَ أنت وماذا فعل هو؟ ولكن هذا لا يهمُّ! إن

الهوامشَ غيرُ مهمةٍ بالقياسِ إلى المتونِ...، لماذا لا يزلن النساءُ مرةً واحدةً، وللأبدِ، نعم يختفين للأبد، ثم نعيدُ، بعدَ ذلك، تعريفَ الفضيلةِ الأخلاقيةِ؟

- **«الفضيلةُ الأخلاقيةُ»!**

- **نعم، ولكن دعك من هذا ولنعدْ إلى الموضوعِ الأساسيِّ: لقد قلت لها: إذا كنت لا تريدين أن نكونَ حبيبَيْن بعدَ اليوم، فأوكي، "الي تشوفينه" ما أنا بحبيبك، لكني سأعدُّ نفسي حبيبَكِ بيني ونفسي، وأنت عدّيني كما تشائين، لا تحرميني حقّي، إنه شعورٌ خاصٌّ بي وبحتٌ، وما يجبُّ على إنسانٍ أن يمنعَ إنسانا آخرَ أن يعيشَ حقَّه الخاصَّ الذي كتبه اللهُ له، إني أطلبُ منك أن تبقي معي فقط، أن تشفقي علي وتبقي معي؛ إنّي أتضرّعُ إليك *يا أيتها المرأةُ*، ولقد سمّيتُها *المرأةَ* حتى تفرحَ، ولكنها ما فرِحت، بل رفضت وقالت: «إنني لن أحرمَك حقَّك الخاصَّ، لكن عِشْه بعيدا عني»، واعلمْ أنها لم تنفصلْ عني فعلا لكنها لمحتْ، لكني قررت أن أتضرعَ لها: لا شيءَ يساوي لذةَ التضرعِ إلى امرأةٍ جميلةٍ، ثم قالت: «إنني مندفعٌ ومنجذبٌ»، فهل أنا مندفعٌ أم منجذبٌ؟ لقد كنت أحبُّها صامتةً، ولكنها تحبُّ الكلام الذي ما له معنى؛ إن لها كلاما كثيرا، من هي لوجينُ الهذلولَ هذه؟ ومن هو ياسرُ الفيصل؟ أنا لا أعرفُ، فهل تعرفهما أنت؟...، ولكني أقولُ لها: «صحيح، لجين الهذلول، نعم، أتفق، هو نفسُه»، ثم بعدَ هذا الإزعاجِ كلِّه تقولُ: «إنك تحتاجُ إلى من يهذبُك!» فافترضتُ أنها هي التي ستهذبُني، ففرحتُ؛ إن**

الإنسانَ يفرحُ إذا التفت إليه أحدٌ، خاصةً عندما يكون هو مهجورا ووحيدا، حتى لو كان هذا الأحدُ التفت إليه كي يقتلَهُ؛ فمهما يكنْ الأمرُ، فإنها تظلُّ التفاتةً، ولكن لا، لم يجيءْ على بالِها أن تهذبَني، لم يطرِ على بالِها أن تضطلعَ بهذه المهمةِ، إن لها مهماتٍ غيرِ تهذيبي: ليس في تهذيبِ الناس كبيرُ متعةٍ!.. ولكن هل أنا مندفعٌ؟ ذلك سؤال يحتاجُ درسا ومناقشةً... على أيِّ حالٍ فقد أرسلت لي صورةً! نعم، صورةً من أجلِ اللهوِ واللعبِ فقط: إنها تحبُّ رؤيةَ تعبيراتي وردَّةِ فعلي على صورِها: هل هي صورٌ فاتنةٌ؟ نعم. لكن ليس هذا هو السؤالُ، بل السؤالُ: ما هي الأشياءُ التي من شأنِ هذه الصورةِ أن تفْعَلَها وأن تُفَعِّلَها، وأن تثيرَها، وما هي الأسئلةُ التي ستساهمُ هذه الصورُ بطرحِها؟ إن ثمةَ مسائلَ فلسفيةً هنا، ليس الأمرُ عبثا! صبرُكم أيها الناسُ لا تحكموا على أخيكم، فإن ما جاءَه سيجيئُكم، وما مسَّهُ سَيَمَسُّكُم! اسمع: إن الأمرَ لم يكن أمرَ خصرٍ بقدرِ ما كان أمرَ مسألةٍ من الأخلاقِ والمعرفةِ، ثمَّ تعال، ما هي الخطيئةُ العظمى وما هي الخطيئةُ الكبرى؟ إذا كانت شجرةٌ ما قد أخرجت أبانا من الجنةِ، فما قولك في عضلةٍ صغيرةٍ أخرجت العقلَ الإنسانيَّ من محلِّه، وأحالتْه إلى بهيمةٍ؟! قسْ بنفسِك: جسدُ آدمَ VS عقلِ الإنسانِ.. ثم من الذي خَطَّطَ هذه الأشياءَ كلَّها؟ إن ثمةَ من يعبثُ بنا، لكأنَّنا قطعُ شطرنجَ؛ وإننا مع ذلك لسنا فيلةً، إننا جنودُ أوائلُ! الأخلاقُ، والدينُ، والعقلُ، والفلسفةُ، والأدبُ، والميثولوجيا، بل النسويةُ ذاتُها: كلُّ هذه الأشياءِ تدينُ ليلى

وتحاكمُها وتحكمُ عليها وتفضحُها، فماذا بعد ذلك كلِّه؟ ذلك هو السؤالُ! ما هو الجمالُ؟ هذا اللغزُ الذي طرحتْهُ علينا قوىً خفيّةٌ، ما هو؟ من ذا الذي مرَّ علينا، ونحن نتوهّمُ ونتقوقعُ حولَ أنفسِنا، فذرَّ الرمادَ في أعيننا فَنَوَّمَنَا ثم أملى علينا هذه الشروطَ والمحدداتِ؟ من هؤلاء؟ النسوةُ هؤلاء، من هُنَّ؟ ماذا يردن، ومن أتى بهن إلى هنا؟ أين نحن؟ ما هذه الرائحةُ الغريبةُ؟ ولماذا لا يختفين مرةً واحدةً، تلكَ النساء، لماذا لا يختفين مرةً واحدةً، وللابدِ؟

- **..ثم نعيدُ تعريفَ الفضيلةِ الأخلاقيةِ؟**
- **لا، سرعان ما تزولُ هاته الإبليسات، ستعيدُ الفضيلةُ تعريفَ نفسِها بنفسها.**

هكذا قال الأخُ: «الفضيلةُ الأخلاقيةُ»، ثم قام واقفا على قدميه واضعا ناظريْه نحوَ الأفقِ أمامَه: إنَّ في الأفقِ حُلُولًا لجميعِ أسئلتِنا. وضعَ عينيه تجاهَ الأفقِ وكأنَّه أثارَ ووضعَ إصبعَه، كما لم يفعلْ أحدٌ من قبلُ، على معضلةٍ إنسانيةٍ جديدةٍ، لم يدرسْها أحدٌ من قبلُ كما قلنا. فقالَ:

- **اسمعْ، إنني أحبُّها، هذا واقعٌ! ومع أنَّ الواقعَ ليس سميكا حتى يُعوَّلَ عليه، لكن مع ذلك لا يمكنُ تجاهلَ كونها تثيرُ الأسئلةَ الجنسيةَ في بواطنَ الذي يتكلمُ معها، والجنسُ أمرٌ غريبٌ لا يقلُّ غرابةً عن الإنسانِ نفسِه: إن الجنسَ مادةُ العالَمِ، كما أن الترابَ مادةُ الأرضِ! كيفَ الحلُّ إذن؟ ثم إنها بعد ذلك كلِّه: بطيئةُ الاستيعابِ! انظرْ إلى هذه التوليفةِ التي تكادُ تستحيلُ على الجمعِ مع بعضِها: جميلةٌ،**

صعبةُ المنالِ، بطيئةُ الاستيعابِ، «and young!..» هل يوجدُ أفضلُ من هذا؟ ولكن مع ذلك كلِّه فقد رفضتْني: لقد رفضتني أنا

– إنك تقولُ إنها لم ترفضْك رسميا!

– نعم، إنها تمهدُ الدربَ لذلك. ولكنها مع ذلك رفضتْني: وكأنها تقولُ: «يا أيها الذي يرفعُ أنفَه اختيالًا وغرورا، إني، مع كلِّ ما فيني من العيوبِ، نعم إنني أرفضُك، أنت –أنت نفسُك– إني أرفضُك!».. طبعا لم تقلْ هذا، فهي مع سوئِها إلا أن لها حسًّا رهيفًا؛ إن الجمالَ عندما يجيءُ لا يجيءُ وحدَه، بل يأتي بشيءٍ رقيقٍ آخرَ معَه...، ولكن، ماذا يمكنُ أن يقالَ؟ هل يوجدُ كلامٌ تقليديٌّ يمكنُ أن يقالَ في حالةٍ غيرِ تقليديَّةٍ، أَهل أنا مثيرُ للشفقةِ؟

– على الأقلِّ استطعتَ أن تثيرَ شفقتَها؛ فلعلَّ غيرَك لم يستطعْ أن يثيرَ شيئا...، وإذا كنت تسألُ نفسَك هل أنت مثيرٌ للشفقةِ، فقد تكونُ مثيرا للشفقةِ فعلا...

الفصلُ الخامسُ: الإطارُ الفكريُّ والعَقَديُّ للبطلةِ ليلى، وما هو رأيُ القضاءِ في هذه المسألةِ؟

هل «القضيةُ التنويريَّةُ» فرضُ كفايةٍ أم واجبةٌ على كلِّ فردٍ من أفرادِ المجتمعِ العصريِّ، وما علاقةُ المجتمعِ الدينيِّ بهذه القضيةِ؟ تلكم قضيةٌ ناقشَها العلماءُ كثيرا في غابرِ الأزمانِ، فانقسموا إلى من يقولُ إن التنويرَ فطريٌّ، وآخرون يمجّدون التثقيفَ والتربيةَ على الإنارةِ، ويجعلونَ العقلَ حاكمًا على النصِّ، وتجديدَ الدينِ، ويذهبُ فريقٌ ثالثٌ إلى التسلُّفِ: ويعنون

بالتسلفِ الأخذَ بتراثِ السَّلفِ، ومدَّهُ على كافةِ أشكالِ الحياةِ، فما كان يوافقُ العقلَ والسلفَ أُخِذَ، وما كان يخالفُ الدينَ يُردُّ، وإلى هؤلاء الثانين –أهلِ العقلِ– إنما تميلُ ليلى بالرأيِ والفكرةِ، لكنها تطرحُ إشكالا مهمًّا إذ تقولُ: إذا كنّا سنحكّمُ العقلَ في إعادةِ دراسةِ الدينِ، ونقدِ التراثِ، فأيُّ عقلٍ سنحكِّمُهُ: ما هي صفاتُ هذا العقلِ، هل هو عقلٌ المتعلمين والنخبةِ، أم عقلُ الأغلبيةِ والعامَّةِ من الناسِ؟ إن العقولَ ليست عقلا واحدا؛ فإذا كان منطقُ أرسطو نفسُه، وهو آلةُ العقلِ، اختلفَت مذاهبُ الناسِ فيه، فماذا نحن فاعلون في عقولٍ لم تبلغْ عشرَ معشارِ عقلِ أرسطو؟ وكذلك قِسْ الأمرَ على مصطلحِ «الإنسانيةِ»، فمن سيحددُ هذه الإنسانيةَ المزعومةَ التي يجبُّ أن نُعيدَ قراءةَ الدينِ بناءً عليها ووفقِها؛ لأنه ليسَ من العقلِ ولا من العدلِ لا من الحكمةِ أن نأخذَ الدينَ، ذلك المنهجُ الإلهيُ، ثم نحكّمَ عليه منهجًا وضعيا مطاطيًّا كـ «الإنسانيةِ»، منهجا مطاطيا ليس له تعريفٌ واضحٌ! وعلى ذلك فقس جميعَ هذه المصطلحاتِ التي لم يتفقْ عليها أحدٌ منذُ مئات السنين.

أما دراستُها المغمورةُ التي نشرتها لما كانت طالبةً في الطبِّ والمعنونةُ بـ: «Society and Medicinae»، الطبُّ والناسُ، التي استطاعت فيها، بجدارة، أن تعزوَ أسبابَ تخلفِ المجتمعاتِ برمَّتِها إلى أربعةِ أسباب: ١. نقصُ المعرفةِ، ٢. فتورُ العاطفةِ، ٣. جموحُ الرغبةِ: وهو الإسرافُ، ٤. العنادُ، وقالت في الجزءِ الثالثِ من الكتابِ، في بابِ (المرأةُ: التشخيصُ والعلاجُ): «إن المجتمعَ الذي نشأ وتربّى على تقليصِ دورِ المرأةِ يرى، وليس المجتمعُ وحدُه بل معه السُّلطةُ، كلُّهم يرون أن أيَّ بروزٍ لدورِ المرأةِ

يواكبُه ضمورٌ في دورِ الرجلِ، أي أنّهُ خطرٌ محدقٌ على وجودِه هو وبقائه أولا، ثم خطرٌ محدقٌ على النظامِ الاجتماعيِّ كاملا، بل خطرٌ على «جوهرِ الحياةِ السعوديةِ!!»؛ ويمكنُ تعليلُ ذلك بأن العاداتِ –مع مرورِ الوقتِ– تصبحُ واجباتٍ، والمجتمعُ الذي يتجرأُ على الواجباتِ الصغيرةِ، قد يتجرأُ لاحقا على الواجباتِ الكبرى، الوجباتِ السياسيّةِ، وهنا يُفَعَّلُ بندُ سدِّ الذرائعِ.»، وعلى أيِّ حالٍ فقد رفضت دكتورةُ المقررِ البحثَ، بحجَّةِ أنه يخرجُ عن مجالِ بحثِ القضيةِ الطبيةِ التي هي محلُّ الدرسِ، وأن لغتَه جافةٌ صعبةٌ قاسيةٌ تخلو من النعومةِ والرقّةِ ممّا دعا ليلى أن تقولَ لها: «إنها ما جاءت لتكتبَ شعرا ونثرا، بل جاءت لتعالجَ الشعورَ الإنسانيَّ»، فكأن ميسونَ السويدان هي قائلةُ العبارةِ لا ليلى، وعلى أيِّ حالٍ، ففي ذلك اليومِ نفسِه تركت ليلى كليّةَ الطبِّ واتجهت إلى القانونَ، وعن راويةَ: إنها رمت الكوتَ الأبيضَ على بابِ المبنى، وأنه ظلَّ هناك يومين اثنين معلقا على البابِ، وكأنّه يرمزُ إلى شيءٍ ما، يرمزُ إلى معنى من المعاني لا يستوعبُهُ إلا شخصٌ مثلُ ليلى، وممّا قيل إنها خرجت سافرةً شعرَها، وكأنها تقولُ إنها إذا كانت تريدُ دراسةَ القانونَ فيجبُ عليها إذن أن تبدأَ بنشاطٍ مخالفٍ للقانون كمجازٍ عن التغييرِ والاعتراضِ، ورآها العيالُ، واعتقدوا أن ثمةَ تحررا من القيودِ يجري وسطَ أروقةِ الجامعةِ، وخافوا لكنَّهم لم يستنكروا؛ لأن هذه، بزعمِهم، هي «السعوديةُ الجديدةُ»، وفيما يتعلّقُ بهذا الشأنِ، فإن لراويةَ رأيا خاصا، هو: إن ما يقالُ وما يروجُ من حكيٍ حولَ وجودِ سعوديةٍ جديدةٍ ما هو إلا محضُ كلامٍ لا صحةَ له وهو أقربُ إلى الفنتازيا منه للحقِّ، والحقيقةُ أن السعوديةَ تغيرت فعلا، لكن تغيرَها كلوحةٍ غُيِّرَ إطارُها ولم يُغيّرْ رسمُها،

(أي أنَّ السعوديين يعتقدون أنهم يتغيرون، وهم لا يزيدون على أن يتشبثوا بالأطرِ متناسين الشيءَ الأساسيَّ، غيرَ آبهين به)، وتساءلت راويةُ على هامش هذا الرأيِ قائلةً: «ما قيمةُ أن يكونَ لدينا دولةٌ؟ لماذا لا نعيشُ كما تعيشُ الحيواناتُ في الغابةِ؟»، واسترسلت قائلةً: «لماذا يوجد هناك شرطةٌ وسلّمُ رواتبَ؟ ما قيمةُ هذا كلِّه؟ وما هو العقدُ الاجتماعيُّ...إلخ».

آني واي، فقد رُفض البحثُ مع أن ليلى أثبتت فيه بالاستدلالِ والتجربةِ أن التخلفَ مرضٌ يماثلُ الأمراضَ العضويةَ، ويبلغُ من المماثلةِ أنه يمكنُ علاجُه بـ(العقاقيرِ التربويَّةِ)، ولم توضّحْ ماهيةَ هذه العقاقيرِ «التربويةِ»، وقد أطالت في هذا البابِ إطالةً مُسرفًا فيها، حتى لكأنها دخلتْ الموضوعَ ثم لم تستطعْ الخروجَ منه! نقول: أما دراستُها المغمورةُ التي نشرتها لما كانت طالبةً في الطبِّ فقد كان بحثًا مغمورا مليئا بالتشبيهاتِ والمجازاتِ التي ليست في محلِّها وما لها من داعٍ، وأن لغتَه لَصعبةٌ وقاسيةٌ، هذا رأيُ وفاءَ في البحثِ، ومن هذا البحثِ النادرِ الصعبِ التحصلِ عليه-، يمكنُ الوصولُ إلى المبادئِ الفكريةِ لليلى:

١ – الأخلاقُ والمجتمعُ:

إن الذكرَ فرديُّ النزعةِ، يحسبُ نفسَه عائشا في غابةٍ، ولمَّا كان أسدًا، فإن كلَّ شيءٍ مباحٌ له. وهو كلُّما رأى صعودا في دورِ المرأةِ، حسَّ أن هناك انخفاضا في دورِه هو، لذلك يحاولُ اعاقتَها بالعاداتِ والتقاليدِ والمقارناتِ...إلخ...إلخ، ويحاولُ اعاقتَها بالـ: «الفقهِ» خاصّةً، ثم «كيف بنى السلفُ، وأهلُ الحديثِ ***دينا كاملا*** ذا قواعدَ مؤسسةٍ على ***علمِ حديثٍ***

اخترعوه هم بأنفسِهم! يعني: ابتدعوا *الجدالَ* أولا، ثم ابتدعوا *القولَ المُجادَلَ عليه*، ثم، أخيرا، ابتدعوا *الحجةَ* على الجدالِ الذي كانوا قد ابتدعوه، ثم ألزمونا *بالنتائجِ* التي نتجتْ عن الأشياءِ التي ابتدعوها، وقالوا: إنها هي الدينُ! ولكن هذا كلُّه: القواعدُ والأصولُ والحججُ التي من اختراعهم ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان! وأين أجدُ في كتابِ اللهِ أن الأحاديثَ الضعيفةَ ذات المعنى الواحدِ التي جاءت من طُرقٍ مختلفةٍ، يمكن أن تُعدَّ صحيحةً إذا دَعَم كلٌّ واحدٍ منها الآخرَ؟ من وضعَ هذه القاعدةَ السمجةَ»، وإن الدينَ يكسب أهميتَه في كونِه مرجعًا أخلاقيا، وإذا كان في هذا المرجعِ الأخلاقيِّ مناقضاتٌ وشذوذٌ واختلافاتٌ، لم يكتف بألّا يكونَ مرجعا، بل يتحولُ إلى النقيضِ من ذلك تماما، فيصبحُ هادما لقواعد الدين العظيم.

٢ – النسويةُ

ليست النسويةُ مذهبا من المذاهبِ المعاصرةِ، إنها حركةٌ إنسانيةٌ قبلَ كلِّ شيءٍ: إن النسويةَ إذا أُعتبرت تصرفًا فإنها تكونُ كالاتصالِ بالإسعاف عندَ رؤيةِ مريضٍ، وقلنا سابقا إن ليلى ترى أن الحلَّ لعلاجِ مشكلةِ المرأةِ ليس سقوط الولايةِ، بل هو سقوط كلِّ ما من شأنِه أن يكونَ له صلةٌ بالتمييزِ بين الجنسين، وأولُهما الفقهُ الإسلاميُّ، وهي ترى في مبس مجددا ورسولا جديدا جاء ليعيدَ الإسلامَ إلى أصولِه، مجددا لا يقلُّ أهميةً عن محمد بن عبدالوهاب نفسِه قبل مئاتِ السنين. وترى أنَّ الولايةَ شيءٌ متفرعٌ من هذا التمييز، فكيفَ لنا أن نتخلصَ من الولايةِ ولا نتخلصَ من النظامِ الذي ولّدَ هذه الولايةَ في المقامِ الأولِ؟

(لا زلنا في مشهدِ مكتبةِ الجامعةِ)

- نعم صحيح لم نستوعبْ لماذا اختلفتِ ومهندُ، وافترقتما! هل سببُ خلافِكما يتعلقُ بالولايةِ؟
- لا، اطمئني يا راويةُ، ليس لهذا السببِ بعينِه!
- ها!
- الحمدُ لله.... هي هي، ما رأيُ مهند، إذن، في النسويةِ؟
- لا أعلمُ، إن رأيَه لا يبلغُ من الأهميةِ مبلغا يجعلُنا نطرحُه هنا اليومَ موضوعا للنقاشِ، ولكنَّ لمهند غموضا في هذه المسألةِ؛ إنه لا يطرحُ رأيَه بوضوحٍ، إنه لا ينفكُّ يلفُّ حولَ السوُّرِ، دونَ أن يتجرأَ مرةً فيدخلِ البابَ مباشرةً!
- أليس هذا حالَهم جميعا؟ إنهم يخافون إن أعلنوا دعمَهم للنسويةِ فقدوا جمهورَهم المضادَّ للنسويةِ، وإن أعلنوا حربَهم على النسويةِ، خسرونا نحن، البناتَ، ما أروعَ أن نكونَ بناتٍ...، فلذلك هم ينتحون هذا المذهبَ ويتلاعبون، ولكن لن تستمر هذه الحالُ، فسيجبُ عليهم، يوما ما، يومَ لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبلُ، أن يبينوا موقفَهم تجاهَ هذه المسألةِ الحساسةِ! لقد آنَ وقتُ الدخولِ إلى لبِّ الموضوعِ...
- ولماذا لا ندخلُ، نحن، إلى «لبِّ الموضوعِ»، وندعَ ليلى تخبرُنا عن السببِ الحقيقيِّ لابتعادِها عن مهند؟ كفى مماطلةً!! إنّي أشمُّ رائحةَ حيلةٍ من الحيلِ.

– بالفعلِ، إنديد، هناك حيلةٌ...، إن ليلى لم تبتعدْ عن مهند. لمّا تزل علاقتُهما قائمةً!

سُمِعَ صوتٌ من بعيدٍ قائلا الذي سمعناه للتوِّ، صوتٌ هو صوتُ غادةَ أو غيداءَ، تلك التي لم نتعرفْها قبلَ الآن، أو لعلنا كنا قد تعرفْنا عليها، فإذا كنتم تذكرون، ولعلكم تعلمون، شخصيةً في الفصلِ الثاني، التي كانت تخاطبُ مهند خطابا غريبا، إنها هي غيداءُ: إنها أختُه غيداءُ. ولكن من تكونُ هذه؟ أنا نفسي لا أعلمُ!

ثم أكلمت:

– نعم، وهو كذلك.

إن ثمّةَ شيئا ما ثابتا، شيئا وثيقَ العرى، شيئا أخلاقيا، شيئا يجبُ أن يتهاوى الآن!

ثم توقفَ الكلامُ قليلا ودارتْ العيونُ حول نفسِها، إلا أن راويةَ ما لبثتْ أن قالتْ:

– قائم... ماذا تقولين يا غيداءُ؟ هل أنتِ جادةٌ؟ اعلمي ما تحدّثين به عن ليلى يا غيداءُ!

– حقيقٌ عليَّ ألّا أقولَ إلّا الحقَّ، ولقد جئتكن بِبَيَانٍ.

ترى من تكونُ غيداءُ هذه؟ لا نستطيعُ أن نحكمَ عليها وأن نعرفَ أيَّ نوعٍ من البناتِ هي، لأننا *لم نرَ وجهَها*، فقد غطتْه نظارةٌ سوداءُ كبيرةٌ، ولماذا تَلبسُ غيداءُ نظارةً سوداءَ كبيرةً في مكتبةٍ؟ هل من ضوءٍ وشعاعٍ هنا

إلا ضوءَ وشعاعَ الكتبِ والمعرفةِ؟ لا نعرفُ، المهمُّ أنها جاءت عارفةً ما هو الموضوعُ الدائرُ، لأنها قالت «ما زالت علاقتُهما قائمةً»، وهي لمّا تصلْ بعدُ إلى الطاولةِ.

لكن الموضوعَ الأهمَّ من هذا كلِّه هو: ما ردّةُ فعل ليلى حولَ هذه البلبلةِ؟ لقد كانت ساكتةً خلالَ هذا الوقتِ كلِّه، فلم تنفِ ولم تؤكدْ كما هي عادةُ الذين يجهلون خطوتَهم المقبلةَ: لقد أحسّت أن تمثالَها الذي بنته لها الصديقاتُ على وشكِ أن يتهاوى؛ إن ذلك الصرحَ القِيَميَّ، على وشكِ الانهيارِ.

- وما في ذلك؟

إن ليلى هي التي تتكلمُ الآن..

- وما في ذلك؟ ما الشيءُ الخارجُ عن حدودِ الأدبِ الذي فعلتَه حتى تبحلقنَ فيَّ؟ نعم، لم أقطعْ علاقتي بمهند...، إنْ هذا إلّا مسرحيةٌ، ما هذا إلا سين (مشهدٌ) من السينات..
- ما بك يا ليلى؟ لماذا تكذبين؟ ما الذي يضطرُك إلى ذلك؟
- لا شيء يضطرني، أنا على هواي، أنا حُرةٌ، أفعلُ ما أريدُ...
- طبعا، أنتِ حرةٌ في شأنِك، لكنك لستِ حرةً بالكذبِ علينا..
- ما قيمةُ أن أكونَ حرةً إن لم أستطعْ أن أقولَ ما شئتُ لِمَنْ أشاءُ وفي أيِّ وقتٍ أشاءَهُ! أليس هذا إملاءً؟
- :/، ماذا تقولُ هذه؟
- إنها تخربط، وترمي بالكلامِ رجما...

هكذا سألت راويةُ بقيّةَ الصاحبات متعجبةً وأن بها لاستغراب. ثم كذلك إنما ردّت غيداءُ عليها.

الفصل السادس: طوبى لمن لا يعيَ من الأمرِ شيئًا

ولكنْ دعونا نتعرفُ إلى الضيفةِ الجديدةِ، ونحاولُ أن نحققَ ونسألَ من تكونُ؟ إن غيداءَنا هذه كانت قد انضمت إلى المجموعةِ في وقتٍ سابقٍ من الشهرِ الماضي أو لعله الشهرُ الذي سبقَ الماضي، ومن الغريبِ أن نذكرَ أنها أختُ مهند. ولَكَمْ هي حريةٌ أن تكونَ أختَه! نعم هي أختُ مهند صديقِنا المشتركِ حبيبِ ليلى، وأن ملامحَ وجهِها لتوحي لنا أن لديها كلاما تودُّ أن تقولَه.

في الحادي والعشرين من عمرِها، أي في العمرِ الذي يكونُ فيه الإنسانُ معلّقا بين المفترضِ والواجبِ، والواقعيِّ والمسلّمِ به، والحقيقةِ والزيفِ، والتردّدِ والجزمِ، ولعلها لم تتجاوزْ الشهرَ السادسَ من السنةِ الحاديةِ والعشرين أثناءَ كتابتِنا لهذه القصةِ القصيرةِ، طويلةَ القامةِ طُولا يجعلُها محلَّ الانتباهِ، وهي واحدةٌ من الفتيات اللواتي نلنَ الانتباهَ كلَّه دونَ أن تضطرَ إلى وضعِ صورةِ أخيها الصغيرِ في تويتر في عيدِ مولدِه، يا لها من آيةٍ من آياتِ الحكمةِ! لكنها لم تصلْ في طولِها إلى العملقةِ بعدُ، ولو أن قامتَها قَصُرَتْ قليلا لاستطعنا أن نقولَ عنها إنها تضجُّ بالأنوثةِ مع *أسئلتِها الميتافيزيقيّةِ*، ولكنها لمّا كانت طالبةً فيزياءَ جَزَمَ الناسُ أخيرا أنها أبعدُ ما تكونُ عن الأنوثةِ، ولو خالفْنا أحدٌ بأن صوتَها أنثويٌّ جدا، لاستطاع أحدٌ آخرُ أن يدحضَ حجةَ الأولِ بقولِه إن غيداءَ تكرهُ الفساتين والوردِ، وتلك

حقيقةٌ لا كلامٌ مُرْسَل! على أيِّ حالٍ، وما دَخْلُنا نحن في هذه الخرابيط، هل وضعنا أحدُهم حكمًا على الناسِ؟! فلنقل أشياءَ رائعةً عن غيداءَ أختِ مهند: إن وجنتيها وفكَّها البارزتين وملامحَها الغريبةَ القاسيةَ المخلوطةَ بين رقّةِ الحجازيات وصلافةِ النجديات وجمالِ الجنوبيات اللواتي لا يحتجن إلى مكياج كما هي النظريةُ الرائجةُ في الهاشتقات، نقول إن ملامحَها الغريبةَ التي تجعلُها شبيهةً بسيلينا قوميز من حيث الشكلِ، وتجعلُها من حيث الموضوعِ شبيهةً بطالبةٍ درست علم الصواريخِ في كليةِ ناسا، قال عنها أحدُهم في تويتر: «إنها» أي طالبةُ ناسا، لا غيداءَ، «إنها فاضلةٌ لكنها سافرة؛ لأنها لم ترتدِ الحجابَ، وليت شعرَها كان رائعا»، فانتشرَ في تويتر أن طالبةَ الصواريخِ فاضلةٌ وشعرَها غيرَ مناسبٍ، بل ولم تكتفِ بكونها فاضلةً ذاتَ شعرٍ سيءٍ، بل حتى لقد استضافتْها سارة دندراوي على قناةِ العربيةِ على أنها فاضلةٌ وليست طالبةَ صواريخ، وسألتها أربعةَ أسئلةٍ عن شعرِها وسؤالا واحدا عن الانفتاحِ الغربيِّ، ولم تسألْها عن الفيزياءِ في شيءٍ، فردّت راويةُ على هذا كلِّه: نعتِها بالفاضلةِ أولا، ثم استضافتِها ثانيا، ثم تسطيحِ الدندراوي آخرا، بقولِها في المنشن: «ما قيمةُ أن نكونَ فاضلاتٍ ومتعلماتٍ دونَ أن نُعْرَفَ مباشرةً أننا فاضلاتٌ ومتعلماتٌ، بل نحتاجُ لأحدٍ أن يعلنَ ويقولَ: إن الفتاةَ هذه أو تلك فاضلةٌ، إن من لا تُرى الفضيلةُ في سيماءَ وجهِه هو فاسدٌ بالضرورةِ...، ثم ما هو العلمُ وما علاقتُه بالفضيلةِ...إلخ»، وعلى أيِّ حالٍ فإنَّ غيداءَ ذكيةٌ وسريعةُ البديهةِ، حتى لقد قالت هندُ مرةً عنها: «لو أن غيداءَ صرفت وقتَ اللودو في المذاكرةِ لاستطاعتْ أن تأتيَ بقانونَ أو اثنين في الاسبوعِ في أقلِّ الأحوالِ»، ومع

كونِها ذكيةً، إلا أن ذكاءَها لمْ يمكنْها من أن تكونَ منتجةً، لأنها تلهو غيرَ مباليةٍ، «لقد باعت الحياةَ»، كما في التعبيرِ العامّيِّ الرائجِ الدقيقِ، ولم يطرِ على بالِها يوما أن تربيَ نفسَها للعلْمِ! إنها حانقةٌ على الطبيعةِ، وعلى القدرِ، على ما جرتْ الْأمور عليه، إنها حانقةٌ على نسبتِها في اللودو التي لم تصلْ ٦٥%، ممّا جعلَها بالنهايةِ لا تأبهُ بشيءٍ! ما هي الأشياءُ الموجودةُ في الواقعِ التي تستحقُّ أن نأبهَ لها؟ لا شيءٌ. وماذا لو نزلتْ إلى نسبةِ ٦٣%؟ ماذا في ذلك؟...، وعندما أعلنت غيداءُ أنها لن تلعبَ اللودو بعدَ اليومِ، عرفتْ هندُ أن الأمرَ ليس مجردَ لودو، إن لودو هنا رمزٌ مجازيٌّ للقِيم الحقيقيّةِ في حياةِ غيداء: إن النردَ عندَ غيداء: يمثّل التاريخِ والزمنِ، إن النردَ ليس مجردَ نردٍ يعطي أرقاما، بل إنّهُ آلةٌ كبرى توزعُ على الناسِ أدوارَهم في هذه الحياةِ الدنيا، وما غيداءُ، في نهايةِ المطافِ، إلا ترسٌ من تروسِ الآلةِ الكبرى: يا ربِّ ردَّنا إليك؛ فإننا لا نحسنُ صنعَ شيءٍ من هذه الحياةِ! ولو كانت غيداء شخصا آخرَ لرأيناها تحاربُ، لكن غيداءَ تختلفُ: إنها واعيةٌ، إننا نراها تضعُ أسلحتَها جانبا، كما وضعتْ اللودو، إنها تَعي أنها في معركةٍ خاسرةٍ، لذلك دفعتْ حياتَها ثمنَ وعيِها، وترى ما هو (الوعيُّ) في النهايةِ؟ هل هو مادةٌ؟ وأخيرا أعلنت يأسَها من الحياةِ لأنها لم تستطعْ أن تأتيَ بِقِطَّةٍ، وقالت لهند مرةً: «لم نعد قادراتٍ على اليأسِ أكثر ممّا يئسنا.» مما جعلَها في النهايةِ: ساخرةً، متمردةً، لكن مِمَّ هي متمردةٌ؟ وممن هي ساخرةٌ؟ هل على قانونَ البلدِ، هل على مبس، هل على الولايةِ، أعرافِ المجتمعِ، وتقاليدِه؟ لا، لا، ليس هذا مستوى غيداءَ، إن هذا مستوى تلك الفتاةِ التي حضنت ماجدَ المهندس، أمّا غيداءُ فمتمردةٌ على القوى

العظمى، القوى النهائيةِ، القوى الميتافيزيقةِ، قوى ما وراءَ الغيبِ، إنها متمردةٌ على الذي صمّم نردَ اللودو! وهل قيادةُ المرأةِ ستؤثرُ على غيداء بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ؟ هكذا سألَتْ غيداءُ نفسَها؛ فالنظريةُ عند صديقتِنا هي: إن كلَّ ما لا يمسُّ مصلحتَها وشخصيتَها مَسًّا مباشرا، فهي لا تحفلُ به، إنه ليس حتى صالحًا للاعتبارِ. فهي لم تصلْ إلى الحدِّ المطلوبَ للمثاليّةِ الذي يجعلُها تدافعُ عن بناتِ جنسِها: تعبتُ من التكرار: إن أشياءَ، كهذه، كلَّها، بالنسبة إلى غيداء، أشياءُ تافهةٌ: هل كان راسكلونيكوف قلقًا من الوجودِ لأنه لم يكملْ تعليمَه في الجامعةَ؟ إن هذه لسخافةٌ عظيمةٌ. لقد صارت غيداءُ، إذن، ساخرةً، نعم، إن الذين ينظرون إلى العُلى ثم لا يصلون إليه ولا يُرضون أنفسَهم، يتحولون إلى أناسٍ ساخرين، لأن شيئا في السخريةِ يمكنُ أن يُعدَّ، بوجهٍ من الوجوه، انتقاما من الواقعِ العمليِّ، الجديِّ، من الطبيعةِ، من القدر، من الوجود...إلخ، قُلْ ما أردتَ، لذلك كان السعوديون في تويتر هم رُوّادُ السخريةِ المبكيةِ.

لقد كانت غيداءُ، إذن، شخصيةً قلقةً؛ ولمّا كانت قلقةً فقد ترتّب على قلقِها أنها واعيةٌ، لأن القلقَ والوعيَ مترابطان، فالإنسانُ لا يقلقُ على واقعةٍ ما من الوقائعِ إلا عندما يَعِيْها ويستوعبُها بأكملِها، ويعي ظروفَها وحالاتِها، ولو كان جاهلا لها لما قَلِقَ: إن القلقَ، بطبيعتِه، علامةُ نضجٍ. والقلقُ الذي تحسُّ به غيداءُ قلقٌ يتصلُ بالوجودِ الشخصيِّ، كما أسلفنا، الوجودِ على الأرضِ. قلقٌ يتصلُ بالبقاءِ والكفاحِ؛ لذلك صدقت هندُ عندما طبّقت نظريةَ اللودو على حياةِ غيداءَ العمليّةِ. إن قلقَها يمسُّ هذا الشيءَ الثمينَ من حياتِها، وهو الوجودُ؛ ولهذا السببِ عينِه هي ليست خائفةً، لأن الخوفَ هو

النسخةُ المُسطّحةُ للقلقِ، إن الذين يبحثون في شؤونِ الولايةِ يخافون، أما الذين يبحثون في شؤون الغيبِ والعدلِ يقلقون. ولمَّا كانت واعيةً وترتبَ على ذلك قلقُها، فقد ترتبَ على هذين: لا مبالاتُها. إن اللامبالاةَ هي أصدقُ وأوضحُ ردّات فعلِ الإنسانِ تجاهَ الحياةِ، لأننا عندما لا نبالي فإننا نضعُ الأسلحةَ جانبا، ونعطي الخصمَ ظهرَنا، لأننا نؤمن أن القوى غيرُ متساوية. نعم، فغيداءُ قد أعلنتْ قرارَها ضدَّ الحياةِ، منذُ استوعبتْها، منذُ اللحظةِ الأولى التي تَبَدَّتِ الحياةُ أمامَ عينيها، أعلنت أن الإيغالَ في هذه المعركةِ الحياتيةِ إن هو إلّا تضييعٌ للجهدِ والوقتِ، دع عنك كونَه عبثا ساخرا يزيدُ من عِظَمِ الموقفِ وجلالتِه، ومن هنا، من هذه اللحظةِ نفسِها، إنما بدأ الوعيُ ينمو عندها وتَتَحَدَّدُ ملامحُهُ، ولمَّا كانت الحياةُ أفعالا، ولمَّا كانت الحياةُ لا تتحددُ ولا تتشكلُ إلا بفعلٍ يُفْعَلُ لا نظريةٍ تُقَالُ، كانت رفيقتُنا قد شذّت عن المسارِ وخرجتْ على هذه القاعدةِ منذُ البدايةِ، فلم تفعلْ شيئا، غيرَ أن وَعَت فقلقت، فكما لمْ تتقاتلْ مع الحياةِ، هي أيضا لم تَسْرِ بقانونِها وبقواعدِها: لقد انتهى، عندها، زمانُ القواعد.

لكنَّ السؤالَ: لماذا دافعت غيداءُ عن أخيها؟ لقد دافعت عنه لسببٍ واحدٍ هو أن مهندَ أخوها، لا لشيءٍ آخرَ. فهي هنا، كما في النادرِ، تتنزلُ إلى الأرضِ وتدافعُ عن قضيةٍ أرضية، عن الذين تحبُّهم، وفي باقي أيامِ حياتِها ووقتها، كانت تعيشُ، باحثةً في أمورِ السماءِ.

(لا زلنا في مشهدِ مكتبةِ الجامعةِ)

– :/، ماذا تقول هذه؟

هكذا سألت راويةُ بقيّةَ الصاحباتِ متعجبةً وأن بها لاستنكارًا.

قالت ليلى:

- **نعم. إنني لم أنقطعْ عنه بعدُ، ومن يدري ربما لا أنقطعُ عنه، ربما لا ننفصلُ.**

تدخلت غيداءُ:

- **نعلم ذلك.**
- **ولكن لماذا؟**
- **لماذا؟ لماذا؟ هل تقولين لماذا؟ لأنني كنت أريدُ أن أفعلَ شيئا ما، أريد أن تقولَ عنّي إحداهن: «لقد فعلت ليلى ذاك من أجلِ ذلك»! ..ولقد أخطأتُ، ولكن *هُو كِيرز!؟*، يتفقُ للإنسانِ أن يرتكبَ أخطاء تافهةً، ولكنه، حتى وهو يرتكبُها، يعلمُ كلَّ العلمِ أنه يقومَ بأشياءَ سخيفةٍ، لكن أعيدُ وأكررُ هو كيرز؟! إن لي ضميرا يا راويةُ، إنني إنسانةٌ! ولكن من يهتمُّ بخطإٍ كهذا؟ أَجَرحتُ واحدةً منكن؟ كل ما فعلتُه أنني كذبتُ على نفسي وكذَّبتُها قبلَ كلِّ شيءٍ: هل في هذا ذنْبٌ كبير؟ أرجوكن..**
- **«أص» قالت غيداءُ. «أص لا تتكلمي، يا كذابةً سامّةً منتنةً تنشرُ الكذبَ، يا منتنةً، لا يحقُّ لك أن تتكلمي معنا بهذه الطريقةِ وتكذبي علينا، ثم تقولي لنا بعد ذلك: «لقد أخطأتُ، ولكن *هُو كِيرز*، من يهتمُّ بخطإٍ كهذا؟»، نحن من يهتمُّ، لأننا نحن من تجرأتِ على تمريرِ نظريتِك السخيفةِ هذه إليهنَّ، أتريدين، إذن، أن يتكلمَ الناسُ عنك**

من فوقِ ظهورِنا؟ يا متخلفة، يا غبية. نحن لسنا البناتِ اللواتي تقصّين عليهن قصصَ مغامراتَك: إن أخي ليس واجهةَ لأفعالك اليائسةِ يا سيئةُ.

قالت غيداءُ ما قالت ثم تركتْ المكانَ، فتبعتها راويةُ:

- غيداءَ، هي، غيداءَ! ما هذه النرفزةُ. فيك شيءٌ؟ تكلمي معي، أنا صديقتُك؟
- ...يستوي في نظري يا راويةُ أن يكونَ لديَّ أشياء أو لا يكونُ. لا شيءَ يستحقُّ القولَ..
- أتفقُ، لا يستوي، إن شيئا لا يستحقُّ...، ولكن حسنا، لا بأسُ، لن أطلبَ منك فوقَ ما تحتملين. إنك تذكريني بأمّي! إن أمي، بطريقةٍ ما، سوداويةٌ مثلُكِ، وكئيبةٌ مثلُ هند، ومحبةٌ للمعرفةِ مثل ليلى: إنها تتبعُ مدرسةَ غادةَ السمان! تخيلي؟ مع أنها منفتحةٌ إلى الحياةِ! لقد أمضت عمرَها في مجتمعاتٍ ثقافيةٍ، ومعارضَ للكتبِ: ألمانيا، النمسا، فيينا، روما، نيويورك، شارع ماديسون...إلخ، لقد عرفت النهضةَ قبلَ أن تعرفَ الصحوةَ، وقبلَ مدةٍ، قبلَ سنواتٍ، قبل أن نسافرَ، كنت أريدُ أن أذهبَ إلى باريسَ من أجلِ ديزني، فَغَيَّرَتْ أمي وجهةَ السفرِ إلى ميونخ، من أجلِ متحف ما، من المتاحف: إن في الإنسانِ شهيةً مدهشةً لِتَعَرُّفِ الماضي، تاركا بذلك حاضرَه، فَغَضِبْتُ: إنه ديزني، لا مجال للمقارنة مع أي متحفِ.. د ي ز ن ي...؟
- نعم، لا شكٌّ. ديزني.

– لكننا مع ذلك ذهبنا إلى ميونخ، وليكن في علمِك: لم أكنْ أثقُ في ذوقِ أمي، وحاولت ليلى أن تقنعَني كثيرًا من قبلُ...، ما علينا، عندما وصلنا إلى ألمانيا، في المتحفِ، رأينا أشياءَ عجيبة، ما كنتُ أحلمُ بها: رداءَ يوليوس قيصر.. يعني أوبس ههه، قيصر! فاحتقرتُ نفسي أني كنتُ أرغبُ في الذهابِ إلى ديزني، ورأينا تنورةَ ديانا، والعقدَ الذي ارتدته أيامَ قُتلت، ورأينا جوليا روبرتس، ثم ذهبنا من ألمانيا إلى فرنسا مباشرة: إلى ديزني...

– ما أكثرَ ما تتكلمين يا راوية! ما شأنُ ديزني الآن؟

– كيف ما شأنُه، إني أقصُّ قصةً هنا يا غيداءُ شفيك؟ **im trying here** ولكن وتيفر، إن هذرَنا سيفضي بنا يوما إلى الحقيقةِ، لأننا عندما نهذرُ، نهذر دون أي عواطف خاصة، فيكونُ كلامُنا صادرًا عن صدورِنا.

الفصلُ السابعُ: السَّابحون في موجٍ من اللا–أدريَّةٍ!

- سامحني، مهندَ، أنا قلّلتْ من شأنِك؛ لأنني كنتُ أحسدُك، وعلى ذلك، قررتُ أن أسخرَ منك. وهذا كلُّه لأنني كنتُ حزينةً، كلُّ ما حولي يُحْزِنُ، ثم إنني أبكي كثيرا: ولا فائدةُ، ولذلك تَوَجَّبَ عليَّ أن أقومَ بـ(خطوةٍ أولى).. إنني لا أطيقُ أن أكونَ مع أحدٍ أكثرُ مني حكمةً وذكاء: إن الزمانَ علمنا كيف نستقبلُ الحزنَ ولم يعلمْنا كيف نستوعبُه.

– وعلامَ كنت تحسديني؟ أأنا أملكُ ما أُحسدُ عليه يا ليلى؟

– نعم، أحسدُك على أنك تملكُ معاناتَكَ الخاصَّةَ، معاناتَك التي تجعلُك إنسانا.

– أَوَلَسْتِ أنتِ نفسِك تعانين؟

– بلى، ولكن حتى وأنا أعاني، لا أستفيدُ.. إني بلا فائدةٍ حتى معاناتي لا أستقيدُ منها.

– هه، معاناتي الخاصةُّ؟ أوكي، فليكن، إذا كان الأمرُ كذلك، فأنا أسامحُك، يا ليلى، إني أسامحُكِ...

انتهت،،،